الافتراق العقدي

أسبابه ، موانعه ، آثاره

إعداد

محمد داود أحمد حجة

المشرف

الدكتور عطا الله بخيت المعايطة

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

العقيدة الإسلامية

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آب ، ٢٠١٣

نموذج ترخيص

أنا الطالب : محمد داود أحمد حجة أمنح الجامعة الأردنية و/ أو من تفوضه ترخيصاً غير حصري دون مقابل بنشر و / أو استعمال و / أو استغلال و / أو ترجمة و / أو تصوير و / أو إعادة إنتاج بأي طريقة كانت سواء ورقية و / أو إلكترونية أو غير ذلك رسالة الماجستير / الدكتوراه المقدمة من قبلي وعنوانها.

الافتراق العقدي

أسبابه، موانعه، آثاره

وذلك لغايات البحث العلمي و / أو التبادل مع المؤسسات التعليمية والجامعات و / أو لأي غاية أخرى تراها الجامعة الأردنية مناسبة، وأمنح الجامعة الحق بالترخيص للغير بجميع أو بعض ما رخصته لها.

اسم الطالب: محمد داود أحمد حجة

التوقيع:

التاريخ: ٥/ ٨/ ٢٠١٢م

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الأطروحة (الافتراق العقدي : أسبابه ، موانعه ، آثاره) ، وأجيزت بتاريخ ٢٣ / ٧ / ٢٠١٣ م

أعضاء لجنة المناقشة :		التوقيع :
الدكتور عطا الله بخيت المعايطة أستاذ مشارك (العقيدة الإسلامية)	مشرفا	....
الدكتور راجح عبد الحميد الكردي أستاذ مشارك (العقيدة الإسلامية)	عضوا	....
الدكتور محمد عبد الحميد الخطيب أستاذ مشارك (العقيدة الإسلامية)	عضوا	....
الأستاذ الدكتور محمد احمد الخطيب أستاذ (العقيدة الإسلامية) جامعة آل البيت	عضوا	....

الإهداء

إلى فرسان الفرقة الناجية

حاملي اللواء في زمن الشتات

إلى الذين لم ينشغلوا بالجواهر والأعراض

عن صيانة الحرم وحماية الأعراض

الذين تركوا لغيرهم الفراش الوثير

وافترشوا صم الصخور

تركوا لغيرهم الشراب والحلوى

وتقاسموا بينهم الضر والبلوى

أهدي عملي هذا

محبة و عرفانا

شكر وتقدير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " [1] , ومنه أتقدم بالشكر الجزيل , من فضيلة الدكتور : عطا الله المعايطة حفظه الله , على ما قدمه من علم و جهد خلال دراستي عليه في السنوات التحضيرية , وعلى تفضله وتكرمه بقبول الإشراف علي في إعداد هذه الرسالة , وأسأل الله أن يجعل كل ما قدمه لي في ميزان حسناته , وأن يجزيه عني خير الجزاء .

وأشكر فضيلة الأستاذ الدكتور : محمد الخطيب حفظه الله على ما قدمه من علم وجهد , خلال دراستي عليه في السنوات التحضيرية , وقد كان لحديثه عن الفرق وآثارها السلبية دور كبير في تشكيل رؤيتي للموضوع .

وأشكر فضيلة الدكتور راجح الكردي على ما قدمه من علم وجهد , خلال دراستي عليه في السنوات التحضيرية , وقد كان لتوجيهاته الكريمة في موضوع العودة بالأمة إلى عصر الائتلاف والاتفاق , دور كذلك في شحذ همتي للكتابة في الموضوع .

كما وأشكر السادة أعضاء لجنة المناقشة على تكرمهم بقبول مناقشة الرسالة .

وأشكر كل من له فضل علي خلال دراسة مرحلة الماجستير, ومن وقف معي من الأهل والزملاء .

جزاكم الله عني كل خير

---

[1] - رواه أبو داوود : كتاب الأدب ، باب في شكر المعروف ، برقم : 4811 . والترمذي : كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال : حديث حسن صحيح .

فهرس المحتويات

الافتراق العقدي : أسبابه , موانعه , آثاره

إعداد

محمد داود أحمد حجة

المشرف

الدكتور عطا الله المعايطة

مـلخص

تناولت الرسالة موضوع الافتراق العقدي , أسبابه وموانعه وآثاره , حيث تعرضت إلى مفهوم الافتراق وتناولت الحديث الذي ورد في معناه - وعرف بحديث الافتراق - بالدراسة سنداً ومتناً , واستخلصت الأحكام والدروس المستفادة منه , ثم تعرضت للبحث في أسباب الافتراق , والتي قسمت إلى : أسباب داخلية وأسباب خارجية , وذكرت شواهد على ضلوع هذه الأسباب في وقوع الافتراق في الأمة , وتناولت مشروع الدعوة إلى عقيدة السلف كمانع لوقوع الافتراق العقدي , من خلال التعريف بالسلف ومنهجهم , ثم ذكر الركائز التي يقوم عليها هذا المشروع , وختمت بذكر أهم الآثار التي نتجت عن الافتراق العقدي , ولا زال العالم المسلم يئن تحت وطأة هذه الآثار , وخلصت الرسالة إلى دعوة أهل العلم والفضل إلى ضرورة تبني مشروع عقيدة السلف كضامن للأمة من الافتراق وآثاره السلبية

مقدمة .

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة , وجعل أمتنا ولله الحمد خير أمة , والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة , وعلى آله وأصحابه أنوار الهدى ومصابيح الظلمة , وبعد :

فإن افتراق المسلمين وتشتتهم من أعظم البلايا التي نزلت بهم , كيف لا ؛ والافتراق مفتاح كل شر , وكان سبب ضعف الأمة ووهنها , وذهاب ريحها , واستهانة عدوها بها , وتجرئه عليها , قال تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الأنفال : 46] .

وقال سبحانه : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام : 153]

ومن هنا , كان لزاماً على كل غيور أن يتدبر حال الأمة , ويعي ما يتهددها من أخطار , فينطلق لسانه بصيحة نذير وتحذير , من أن تتنكب الأمة صراط الهدى , وتظل سادرة في طريق الافتراق حتى يدركها الغرق على هذه الحال , وسنة الاستبدال لا تحابي أحداً , { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد : 38]

لقد لمس الباحث الحاجة إلى تسليط الضوء على هذه الآفة الخطيرة التي تلقي بظلالها على أمتنا , والأمة أحوج ما تكون إلى كل فرد من أبنائها , ليكون سنداً لها في المعركة المصيرية التي تخوضها الأمة دفاعاً عن هويتها وتاريخها , وقيمها وحضارتها .

ولا شك أن لهذه الآفة تبعات لا تقل خطورة عنها ؛ فقد نجم عنها ظهور واقع مرير لا يزال المسلمون يعانون منه , فالتعصب بين أتباع المذاهب على أشده , واسم أهل السنة والجماعة , بعد أن كان وصفاً كريماً يسعى المسلمون للظفر به , غدا اليوم سيفاً بيد هذه الفرق , تتحارب باسمه فيما بينها , وظن البعض أن لهم وكالة حصرية لهذا الوصف الشريف , يمنحونه بموجبها لمن شاؤوا , ويصرفونه عن البقية , ونسوا أن من أعظم صفات أهل السنة الجماعة الرحمة والإشفاق على الناس , وبذل الوسع في سبيل هدايتهم و إرشادهم إلى سبيل النجاة .

وتمادى آخرون ؛ فنصبوا أنفسهم حَكَماً على أفعال الناس وأقوالهم , وعلمهم ومؤلفاتهم , فظهر منهم التربص بالمسلمين , وتتبع عوراتهم وثغراتهم , وزلاتهم وهفواتهم , حتى يسارعوا

إلى إصدار الأحكام بالخروج من أهل السنة , دون أي اعتبار للضوابط التي كان عليها السلف رضوان الله عليهم .

وأسوأ من ذلك الدعوات المشبوهة التي تدعو إلى ترك ما أنتجه العالم من كتب و مؤلفات وعلوم , لمجرد الخطأ أو الزلل , بل واعتبار ذلك قربة إلى الله , وبهذه الصورة لن يتبق للمسلمين من علمائهم إلا عدد قليل , وهذا من أعظم ما أوذي المسلمون بسببه ؛ لأنه لا شيء أخطر من ثلم مكانة أهل العلم في نفوس العوام , فهم الهداة الذين يقتفى أثرهم , ويستضاء بنور علومهم .

وما أشد سعادة أعداء الله بهذه الموجة من الرفض والإبعاد لعلماء الأمة , وترك حسناتهم جملة واحدة , فهذا يشبه صنيع الرافضة الذين سعوا من وراء سب وانتقاص الصحابة , إلى التشكيك في الدين الذي حملوه إلينا , والعلماء هم ورثة هذا الجيل المبارك , ولا يسلم الطاعن فيهم – قصد أو لم يقصد – من أن يكون له ذات الهدف الذي كان الرافضة يحلمون به .

وليس معنى ذلك أبدا التهوين من شأن الخلاف في المسائل العقدية , لكني أدعو إلى تقدير هذه الأخطاء بالحجم الحقيقي لها , وعدم رد ما أتى به العالم من خير جملة واحدة بسبب الخلاف , وأدعو كذلك إلى تنحية هذا الخلاف , الذي هو ضمن إطار مدرسة واحدة هي " أهل السنة والجماعة " بمفهومها الكبير , الذي يقابل أهل الرفض وسائر الفرق غير المسلمة , فضلا عن اليهود والنصارى وغيرهم من الأديان المخالفة .

إننا اليوم في زمان الحرب فيه على الإسلام على أشدها , والمحارب لا يميز بين سلفي أو صوفي , أو أشعري أو ماتوريدي , فالكل عند اليهود والنصارى كافرون , وعند الرافضة نواصب , لذا ؛ كان لزاما على المسلمين أن يجعلوا كلمتهم واحدة في وجه هذه الأزمة التي تستهدف أصل الإسلام .

ولئن بقينا ننادي بالاستمرار في تخندق الأمة خلف اسم أهل السنة والجماعة بمفهومه المحدد الذي أشارت إليه النصوص , واستمر الجدل حول تعيين الفرقة الناجية , فسيكون أمام كل فرقة خصوم آخرون سوى أعدائها الأصليين , فعلى السلفيين أولا اجتياز نزاعهم مع الأشاعرة والماتريدية , وبقية الفرق كذلك , وسيظل العدو الأصيل المخالف لنا في أصول الدين هادئا ناعم البال , لا يشغله شيء عن إعمال سيفه في الأمة تقتيلا وتمزيقا , والمنافسة بين أشراف الأمة من علماء وطلبة علم على أشده للظفر بلقب " أهل السنة والجماعة " .

إن الخروج عن مسمى أهل السنة والجماعة بمفهومه الخاص , ليس خروجا عن الإسلام , لذا ؛ فإنه لا عذر لمسلم أينما كان محله من هذا الوصف الشريف , أن يترك نصرة الإسلام في وجه أعدائه , وأن يتعاضد مع أخيه المخالف والموافق له في الاعتقاد , حتى يتحقق النصر والظفر على الأعداء , ويكف بأسهم عن نساء الأمة وأطفالها وشيوخها , واسترداد ما نهب من حقوق المسلمين , وتبقى سلامة الاعتقاد بين العبد وربه , وعلى من يعتقد صواب ما ذهب إليه , دعوة غيره برفق ولين , وإشفاق وحب ومودة .

ولما كانت هذه الدعوة , رسالة إشفاق و نصح ومحبة لأمتي الغالية , ولما كان المخاطبون بها أصالة العلماء وطلبة العلم , كان من الأجدر أن تصاغ هذه الدعوة في قالب رسالة علمية , لعل الله تبارك وتعالى يكتب لها القبول , ويجعل فيها النفع والخير لمن قرأها .

مشكلة الدراسة :

يحاول الباحث من خلال هذه الرسالة الإجابة عن الأسئلة الآتية :

أولا : ما مدى صحة حديث الافتراق وما الأحكام التي يمكن استنباطها منه ؟

ثانيا : ما أسباب الافتراق العقدي ؟

ثالثا : ما الضوابط العقدية التي يمكن بها حسم الافتراق ؟

رابعا : ما أبرز آثار الافتراق العقدي على جوانب الحياة المختلفة ؟

أهمية الدراسة :

تتحدد أهمية الدراسة في النقاط الآتية :

أولا : حسم الجدل حول صحة حديث الافتراق والأحكام المبنية عليه .

ثانيا : معرفة أسباب الافتراق العقدي .

ثالثا : عرض و بيان ضوابط عقدية لحسم الافتراق والعمل على تأطيرها بمشروع .

رابعا : إدراك خطورة الافتراق العقدي على مجالات الحياة العلمية والحياتية و معرفة آثاره .

الدراسات السابقة :

بعد البحث والتحري عن الدراسات السابقة لهذا الموضوع في الدوريات الورقية والالكترونية ومواقع الجامعات على الشبكة العنكبوتية لم يجد الباحث إلا رسالة واحدة تطرقت إلى الحديث عن الافتراق العقدي لكنها انحصرت في دراسة حديث الافتراق دون التطرق إلى آثار الافتراق و انعكاساته المعاصرة .

وهي رسالة : " المباحث العقدية في حديث افتراق الأمم " للباحث **:** أحمد سردار مهر الدين (أفغاني) المشرف : محمود عبد الرحمن قدح **و** نوقشت في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بتاريخ : 21 / شعبان / 1425 هـ وملخصها كالآتي :

الباب الأول : دراسة حديث افتراق الأمم رواية وفيه فصلان: الفصل ألأول :دراسة روايات حديث افتراق الأمم. الفصل الثاني: أقوال العلماء في الحكم على حديث افتراق الأمم. الباب الثاني- الافتراق في الأمم وفيه ثلاثة فصول :الفصل الأول : الافتراق ـ باعتبار أصلِه ـ الفصل الثاني: الافتراق في اليهود والنصارى . الفصل الثالث: الافتراق في هذه الأمة. الباب الثالث: الفرقة الواحدة الناجية وفيه خمسة فصول : الفصل الأول : دلالة قوله صلى الله عليه وسلم ـ : ((إلا واحدة)) على أن الحق واحد لا يتعدد. الفصل الثاني : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((هي الجماعة)) . الفصل الثالث : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ((ما أنا عليه وأصحابي)) . الفصل الرابع : الأسماء التي تطلق على الفرقة الواحدة . الفصل الخامس : المعالم البارزة للفرقة الواحدة الناجية . وأما الخاتمة فقد ذكر فيها أهم نتائج البحث .

وقد انحصر الحديث في هذه الرسالة في إطار حديث الافتراق , وتوسع الباحث كثيرا في دراسة ونقد روايات الحديث , والدروس المستفادة منه , دون النظر في أسباب الافتراق بالتفصيل , أو سبل التوقي منه وتلافي آثاره السلبية مما ستعالجه دراستي .

منهج البحث

اعتمد الباحث في دراسته على أسس البحث العلمي ومناهجه المعتبرة لدراسة موضوع الرسالة , فيما يأتي بيان تلك الأساليب والمناهج :

أولا : المنهج التحليلي

وذلك من خلال دراسة وتحليل النصوص التي وقف عليها الباحث واستنباط ما يدعم ويخدم فرضيات البحث , وأيضا من خلال تتبع الحوادث التاريخية التي سطرها المؤرخون لبيان عمق تأثير الافتراق العقدي على الحياة الإسلامية , والوقوف على المناقشات العلمية بين المفترقين وبيان حجم الأثر الذي أحدثته مشكلة الافتراق العقدي على النتاج العلمي لهم .

ثانيا : المنهج النقدي

وذلك من خلال استيعاب عرض الاعتراضات والانتقادات الموجهة إلى النقول المعروضة في الرسالة بتجرد وإنصاف وموضوعية .

وجاءت خطة البحث في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة

المقدمة : وفيها أهمية البحث ومشكلة الدراسة و الدراسات السابقة ومنهج الباحث وخطة البحث

الفصل الأول : حديث الافتراق

المبحث الأول : حكم حديث الافتراق

المبحث الثاني : تحليل متن الحديث

الفصل الثاني : أسباب الافتراق العقدي

المبحث الأول : أسباب داخلية

المبحث الثاني : أسباب خارجية

الفصل الثالث : موانع الافتراق العقدي :

المبحث الأول : الدعوة إلى عقيدة السلف

المبحث الثاني : الضوابط المانعة من الافتراق العقدي

الفصل الرابع : آثار الافتراق العقدي

المبحث الأول : أثر الافتراق العقدي على الواقع السياسي

المبحث الثاني : أثر الافتراق العقدي على الواقع العلمي والدعوي

خاتمة

الفصل الأول

حديث الافتراق

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : حكم حديث الافتراق

المبحث الثاني : تحليل متن الحديث

المبحث الأول : حكم حديث الافتراق

تمهيد :

يجدر بنا قبل الخوض في بحث حديث الافتراق أن نشير إلى تعريف الافتراق , وذلك بالرجوع إلى المعاجم المعتبرة , حتى يتسنى لنا فهم الموضوع من جوانبه كلها , ولأن فهم المعنى اللغوي للكلمة معين على فهم واستنباط الأحكام من النصوص التي وردت فيها .

أولا : تعريف الافتراق

جاء في مقاييس اللغة : " الفاء والراء والقاف أصيل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين " [1]

وهو عند صاحب اللسان : " خلاف الجمع فرقه يفرقه فرقاً وفرقه , وقيل فَرق للصلاح فرقا وفَرق للإفساد تفريقا , وانفرق الشيء وتفرق وافترق وفي حديث الزكاة لا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين مُتفرق خشية الصدقة " [2]

وقال أيضا " الفرقة : مصدر الافتراق. قال الأزهري: الفُرقة اسم يوضع موضع المصدر الحقيقي من الافتراق . وفي حديث ابن مسعود : صليت مع النبي، صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين ومع أبي بكر وعمر ثم تفَرقت بكم الطرق ، أي ذهب كل منكم إلى مذهب ومال إلى قول وتركتم السنة. وفارق الشيء مفَارقة وفراقا: باينه، والاسم الفرقة. وتفارق القوم: فَارق بعضهم بعضاً . وفَارق فلان امرأته مفارقة وفراقاً : باينها. والفرق والفرقة والفَريق: الطائفَة من الشيء المتفرق. والفرقة: طائفَة من الناس، والفريق أكثر منه " [3]

وفي مختار الصحاح " فَرق بين الشيئين من باب نصر و فرقانا أيضا و فرق الشيء تَفريقا و تفرقة فانفَرق و افترق و تفرق وأخذ حقه منه بالتفاريق " [4]

---

[1] - ابن فارس , أبو الحسين أحمد بن فارس (ت 395 هـ) : مقاييس اللغة , راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي , دار الحديث , القاهرة , 1429هـ 2008مـ , ص 734 .

[2] - ابن منظور , محمد بن مكرم (ت 711 هـ) : لسان العرب , دار صادر , بيروت , ط 1 , ج 10 ص 299 .

[3] - المرجع السابق : ج 10 ص 300 .

[4] - الرازي , محمد بن أبي بكر بن عبد القادر , مختار الصحاح , ت : محمود خاطر , مكتبة لبنان , 1415 هـ 1995 م , ص 517 .

وحاصل هذه التعريفات أن الافتراق يعني التمييز والفصل بين شيئين , وقيس عليه التزييل بين الحق والباطل , ومنه جاءت تسمية غزوة بدر في القرآن الكريم بيوم الفرقان , لأنها فرقت بين الحق والباطل .

المطلب الأول : روايات الحديث

لقد اعتنى العلماء والباحثون بحديث الافتراق قديماً وحديثاً , ودرسوا رواياته للحكم عليه , ودرسوا متنه , واستخلصوا منه دروسا وأحكاما كثيرة , ولعل سبب اهتمامهم به يرجع إلى معالجته قضية هي من أخطر القضايا التي تمس واقع الأمة ومستقبلها في كل زمن , ألا وهي تفرق المسلمين وانحراف نفر منهم عن أصول اعتقاد أهل السنة , ومن هنا ؛ كانت دراسة هذا الحديث سندا ومتناً أمراً بالغ الأهمية لمن يتصدى للبحث في موضوع الفرق وأساس افتراقها , و سبل جمعها وتوحيد كلمتها .

ورغم أن موضوع الافتراق الحاصل في هذه الأمة قد وردت الإشارة إليه في نصوص من القرآن والسنة [1] , إلا أن الباحثين انشغلوا بهذا الحديث عن غيره لأسباب منها :

1- الذكر الصريح الواضح لموضوع الافتراق ووقوعه في الأمة

2- تعرض الحديث لذكر الأمم السابقة ؛ اليهود والنصارى و مقارنة أمة الإسلام بهم

3- الأرقام التي ذكرت في الحديث والتي أثارت فضول الباحثين و رغبتهم في تحقيق المسألة

و سأعمل على عرض أهم الروايات التي تناولها العلماء بالبحث والتحقيق , وأنقل ملخصا لأقوالهم فيها للوصول إلى حكم الحديث . [2]

أولا : روايات الحديث ونقدها

1 - عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ؛ فواحدة في الجنَّة وسبعون في النار، وافترقت النَّصارى على ثنتين وسبعين فرقة ؛ فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة . والذي نفس محمد بيده

---

[1] - سأذكر نماذج من هذه النصوص في ختام هذا المطلب إن شاء الله .

[2] - اعتمدت في هذا المطلب على رسالة (صفة الغرباء) لـ د . سلمان بن فهد العودة , دار ابن الجوزي , ط 1 , 1990 م . الصفحات 20 – 50 .

لتفترقنَّ أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ؛ واحدة في الجنة ، وثنتان وسبعون في النار . قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : الجماعة "[1]

2 - عن أبي عامر عبد الله بن لحي قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة ؛ قام حين صلى صلاة الظهر، فقال " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة ، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتَجارى الكلب بصاحبه ؛ لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله "[2]

---

[1] - رواه: ابن ماجه في سننه في كتاب الفتن ، باب افتراق الأمم (رقم 3992) و (1322/2) , وعلّقه الحاكم في المستدرك في : كتاب الإيمان (6/1) . فيه عباد بن يوسف : لم يرو عنه من الستة إلا ابن ماجه ، روى عنه هذا الحديث فحسب ، وقد عدَّه ابن حبان في الثقات ، ووثقه ابن ماجه ، وابن أبي عاصم ، وقال عثمان بن صالح : حدثنا إبراهيم بن العلاء ، حدثنا عباد بن يوسف ؛ صاحب الكرابيسي ، ثقة ، وقال ابن عدي : " روى عن صفوان وغيره أحاديث ينفرد بها " . والذي يترجَّح - والله أعلم - أنه صدوق ، حسن الحديث انظر : التهذيب لابن حجر (110/5) ، الميزان للذهبي (380/2) .

[2] - رواه أبو داود في سننه في كتاب السنة ، باب شرح السنة (رقم 4597) (5/5) والدارمي في سننه في كتاب الجهاد , باب في افتراق هذه الأمة (رقم 2521) ، (158/2) والإمام أحمد في المسند (102/4) والحاكم في المستدرك في : كتاب العلم ووافقه الذهبي (128/1) و الآجري في الشريعة باب ذكر افتراق الأمم ، (ص 18) . فيه أزهر بن عبد الله الحرازي : وثقه العجلي ، وابن حبان ، وقال الذهبي :" تابعي حسن الحديث، لكنه ناصبيٌّ ينال من علي – رضي وأزهر بن عبد الله الحرازي : وثقه العجلي، وابن حبان، وقال الذهبي : تابعي حسن الحديث ، لكنه ناصبيٌّ ينال من علي –رضي الله عنه- ، وقال في المغني : صدوق ، وقال ابن حجر : صدوق تكلّموا فيه للنصب . انظر: الميزان للذهبي (173/1) ، الثقات للعجلي (ص59) ، الثقات لابن حبان (38/4) ، المغني للذهبي (65/1) . فالحديث – بهذا الإسناد - حسن ؛ لحال أزهر بن عبد الله ، لكنه صحيح بشواهده . وقد صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي كما أشرت في تخريجه .

3 - عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : " افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة - أو قال : اثنتين وسبعين فرقة - ، وتزيد هذه الأمة فرقة واحدة ؛ كلها في النار إلا السواد الأعظم . فقال له رجل : يا أبا أُمامة , من رأيك أو سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: إني إذا لجريء ؛ بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، ولا مرتين ، ولا ثلاث " [1]

4 - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة ؛ كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة " [2]

5 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " افترقت اليهود على إحدى - أو ثنتين - وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى - أو ثنتين - وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة " [3]

---

[1] - رواه ابن أبي عاصم في السنة , باب فيما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق (رقم 68) , (34/1) ومحمد بن نصر المروزي في السنة (ص 16و17) والطبراني في الكبير برقم (8035 و8051 و 8054) ، (321/8 و327 و328) . فيه قطن بن عبد الله وهو مستور (انظر : "التاريخ الكبير" للبخاري (189/7) ، "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (137/7)) , فهو ضعيف بهذا السند , إلا أنه توبع من عدد من الرواة فارتقى إلى درجة الحسن , والله أعلم .

2 - رواه ابن ماجه في كتاب الفتن باب افتراق الأمم (رقم 3993) ، (1322/2) وابن أبي عاصم في السنة باب فيما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق (رقم 64) ، (32/1) . فيه الوليد بن مسلم يدلّس تدليس التسوية، وهو أن يسقط ضعيفاً بين ثقتين، وهو شر أنواع التدليس ، فلا يقطع باتصال السند إلا إذا صرح هو ومن فوقه من الرواة بالتحديث، وها هنا لم يصرِّح قتادة، مع أن قتادة نفسه مدلس , فهو بهذا الإسناد ضعيف , إلا أن يقوى بشواهده فيرتقي إلى درجة الحسن .

[3] - رواه أبو داود في كتاب السنن باب شرح السنة (رقم 4596) (4/5) والترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (رقم 2640)، (25/5) وابن ماجه في كتاب الفتن باب افتراق الأمم (رقم 3991) ، (1321/2) و الإمام أحمد في المسند (332/2) دون ذكر النصارى . والحاكم في مستدركه في كتاب الإيمان (61/1) و في كتاب العلم (128/1) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . فيه ومحمد بن عمرو : هو ابن علقمة بن وقاص الليثي : قال أبو حاتم: صالح الحديث , يكتب حديثه ، وهو شيخ

6 - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي مَن يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ؛ كلهم في النار إلا ملة واحدة . قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي " [1]

وقال النسائي : ليس به بأس ، وقال مرة : ثقة ، وتكلم فيه ابن معين ، والجوزجاني ، وقال الذهبي : شيخ مشهور حسن الحديث ، وقال ابن حجر : صدوق، له أوهام , انظر : التهذيب لابن حجر (375/9) ، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (31/8) الميزان للذهبي (673/3) التقريب لابن حجر (196/2) , فالحديث – بهذا الإسناد – حسن ؛ لحال محمد بن عمرو، ولكنه صحيح لشواهده ، وقد صحَّحه : الترمذي، والحاكم ، وابن حبان ، وصحَّحه أيضًا : الشاطبي في الاعتصام (2 /189) ، والسيوطي في الجامع الصغير (20/2 المطبوع مع فيض القدير) .

[1] - رواه الترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة رقم (2641) ، (26/5) و الآجري في الشريعة باب ذكر افتراق الأمم في دينهم (ص 15 و16) و المروزي في السنة (ص 18) و اللالكائي في سياق ما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على اتباع الجماعة (رقم 145- 147) ، (99/1) و العقيلي في الضعفاء الكبير في ترجمة عبد الله بن سفيان الخزاعي ، رقمها (815) ، (2 /262) والحاكم في كتاب العلم، (128/1) وابن بطة في الإبانة الكبرى باب ذكر افتراق الأمم في دينهم (رقم 443 – 244) ، (221-219/1) . ومداره على عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، عن عبد الله ابن يزيد، عن عبد الله بن عمرو . وعبد الرحمن: وثقه يحيى القطان مرة، وضعَّفه أخرى، ووثَّقه أحمد ابن صالح المصري، وقال البخاري: "مقارب الحديث"، وقال في "الضعفاء الصغير": "في حديثه بعض المناكير"، وضعفه يحيى بن معين، والإمام أحمد، والنسائي، وغيرهم، وقال الذهبي: "ضعفوه"، وقال ابن حجر : " ضعيف في حفظه " .

انظر: التهذيب لابن حجر (6/ 173) الضعفاء الصغير للبخاري (ص142) الكاشف للذهبي (146/2) التقريب (480/1) , أما تحسين الترمذي له كما في السنن مع تحفة الأحوذي (3/ 368) فلعله راجع إلى شواهده لا إلى حال الإفريقي , والله أعلم .

7 - عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين ملة، ولن تذهب الليالي والأيام حتى تفترق أمتي على مِثلها " [1]

8 - عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد عن أبيه عن جده قال : كنا قعودًا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجده، فقال : " لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ، ولتأخذن مثل أخذهم ، إن شبرا فشبر، وإن ذراعا فذراع ، وإن باعا فباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه ، ألا إن بني إسرائيل افترقت على موسى على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة ؛ الإسلام وجماعتهم ، وإنها افترقت على عيسى بن مريم على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة ؛ الإسلام وجماعتهم ، ثم إنهم يكونون على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة ؛ الإسلام وجماعتهم " [2]

فهذه أشهر روايات الحديث التي تناولها الدارسون , ويتبين لنا أنه على ضعف الروايات الثلاث الأخيرة , إلا أن الخمس الأولى تراوحت بين الصحة والحسن , فالحديث بمجموع شواهده ورواياته لم ينزل عن درجة الحسن , وقد حكم عليه بذلك جمع من أهل العلم , واخترت أن أنقل كلاما لاثنين من المتأخرين الذين درسوا روايات هذا الحديث ونقدوها , وبينوا صحته , وناقشوا آراء المعترضين على تصحيحه وردوا عليها , وأبدأ بكلام الشيخ صالح المقبلي (ت : 1108 هـ) الذي يقول : " حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، رواياته كثيرة يشد بعضها بعضا بحيث لا يبقى ريبة في حاصل معناها , (...) والإشكال في قوله : كلها في النار إلا ملة ، فمن المعلوم أنهم خير الأمم ، وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة ، مع

---

[1] - رواه الآجري في الشريعة باب ذكر افتراق الأمم (ص17) و المروزي في السنة (ص17) و ابن بطة في الإبانة الكبرى باب ذكر افتراق الأمم في دينهم (رقم 242 و245- 246) ، (218/1 و221-222) . فيه وموسى بن عبيدة : هو الربذي ، ضعيف . "التقريب" (286/2) .

[2] - رواه الحاكم في مستدركه في آخر كتاب العلم (129/1) , وقال قبل روايته : "وقد رُوِيَ هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعمرو بن عوف المزني بإسنادين ، تفرد بأحدهما عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ، والآخر كثير بن عبد الله المزني ، ولا تقوم بهما الحجة " وهذا الإسناد ضعيف جدًا ؛ لحال كثير بن عبد الله و الإفريقي .

أنهم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود حسبما صرحت به الأحاديث، فكيف يتمشى هذا ؟ فبعض الناس تكلم في ضعف هذه الجملة ، وقال : هي زيادة غير ثابتة , وبعضهم تأول الكلام بأن الفرقة الناجية صالحوا كل فرقة , وهو كلام منتقض ؛ لأن الصلاح إن رجع إلى محل الاقتران فهم فرقة واحدة لا أفراد في الفرق , وإن رجع إلى غير ذلك فلا دخل له , لأن الكلام أنهم في النار لأجل الافتراق وما صاروا به فرقا " [1]

والنقل الثاني عن الشيخ الألباني (ت : 1420 هـ) الذي تعرض للشبه المثارة حول صحة الحديث , فقال رحمه الله :

" فقد تبين بوضوح أن الحديث ثابت لا شك فيه ، ولذلك تتابع العلماء خلفا عن سلف على الاحتجاج به , حتى قال الحاكم في أول كتابه المستدرك : إنه حديث كبير في الأصول , ولا أعلم أحدا قد طعن فيه ، إلا بعض من لا يعتد بتفرده وشذوذه " [2]

وردا على من طعن في زيادة (كلها في النار) ومنهم ابن حزم رحمه الله , قال :

" فإن صح ذلك عن ابن حزم ، فهو مردود من وجهين :
الأول : أن النقد العلمي الحديثي قد دل على صحة هذه الزيادة ، فلا عبرة بقول من ضعفها .
والآخر: أن الذين صححوها أكثر وأعلم بالحديث من ابن حزم ، لاسيما وهو معروف عند أهل العلم بتشدده في النقد ، فلا ينبغي أن يحتج به إذا تفرد عند عدم المخالفة فكيف إذا خالف ؟ " [3]

وتعليقا على كلام ابن الوزير رحمه الله في نقد تلك الزيادة التي وردت في رواية معاوية رضي الله عنه قال :

" إن مما يؤيد ما ذكرته أمرين :

---

[1] - المقبلي , صالح : العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ , دار البيان - دمشق - , 1401 هـ , ص 513 .
[2] - الألباني : أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين , سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها , مكتبة المعارف – الرياض – ط 1 , 1415هـ , ج 1 ص 408 .
[3] - المصدر السابق : ج 1 ص 408 / 409 .

الأول: أن ابن الوزير في كتاب آخر له قد صحح حديث معاوية هذا ، ألا وهو كتابه القيم الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم , فقد عقد فيه فصلاً خاصاً في الصحابة الذين طعن فيهم الشيعة وردوا أحاديثهم ، ومنهم معاوية رضي الله عنه ، فسرد ما له من الأحاديث في كتب السنة مع الشواهد من طريق جماعة آخرين من الصحابة لم تطعن فيه الشيعة ، فكان هذا الحديث منها .

الأمر الآخر : أن بعض المحققين من العلماء اليمانيين ممن نقطع أنه وقف على كتب ابن الوزير، ألا وهو الشيخ صالح المقبلي، قد تكلم على هذا الحديث بكلام جيد من جهة ثبوته ومعناه ، وقد ذكر فيه أن بعضهم ضعف هذا الحديث فكأنه يشير بذلك إلى ابن الوزير. وأنت إذا تأملت كلامه وجدته يشير إلى أن التضعيف لم يكن من جهة السند ، وإنما من قبل استشكال معناه " [1]

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذه الزيادة كذلك أنها تشير إلى أن أكثر هذه الأمة سيكون مصيره النار , لأن أهل الجنة فيه فرقة من أصل ثلاث وسبعين فرقة , وهذا غير مسلم , لأنه لا يعني بالضرورة أن الفئة الناجية أقل , بل إن العكس هو الثابت , فأكثر المسلمين على العقيدة التي ينجو صاحبها , والفرق المخالفة عددها أقل من أن تزيد بمجموعها عن الناجين , وقد اندثر معظمها ولم يتبق لهم أتباع , كما أن الحكم للفرق المخالفة بالنار لا يقتضي خلودها فيها , إنما يخرج كثير منهم بشفاعة الشافعين , أو بعد أن يكون عذب بقدر معصيته وبعده عن الحق .

وخلاصة القول أن الحديث مقبول معتبر صالح للاحتجاج به عند أهل العلم , ومما يدل على ذلك اجتهاد بعضهم في تصنيف كتب جمعت أسماء هذه الفرق وآرائها ومقولاتها , وممن اشتغل بذلك الشهرستاني في كتابه الملل والنحل , والبغدادي في كتابه الفرق بين الفرق .

[1] - الألباني , سلسلة الأحاديث الصحيحة : ج 1 ص 410 / 411 .

المطلب الثاني : شواهد من القرآن والسنة تؤكد حدوث الافتراق

لم يكن حديث الافتراق النص الشرعي الوحيد الذي أشار إلى قضية افتراق الأمة , فلقد ورد ذكره في آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة أخرى , تارة على سبيل الدعوة إلى الاجتماع والتوحد والاعتصام بالكتاب والسنة , وأخرى على سبيل التحذير من الافتراق ومن آثاره وأضراره الخطيرة , ومن هذه الشواهد :

أولا : شواهد من القرآن الكريم

قال تعالى : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام : 153]

وقال تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الأنفال : 46]

وقال تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) } [الشورى: 13 - 14]

وقال تعالى : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً } [النساء : 115]

قال تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32) } [الروم : 30 – 32]

وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) } [الأنعام : 159]

وقال تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) } [هود: 118-119]

وقال تعالى : { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) } [يونس: 19]

وقال تعالى : { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) } [**البينة : 4 – 5**]

وقال تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) } [**هود : 118 – 119**]

وقال تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176) } [**البقرة : 176**]

وقال تعالى : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) } [**آل عمران : 19**]

وقال تعالى : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيد } [**البقرة : 253**]

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) } [آل عمران : 100 – 107]

قال الإمام القرطبي مفسرا للآيات من سورة آل عمران : " فمن بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض ، المبتعدين عنه، المسودي الوجوه وأشدهم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهواءها، فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون " [1]

وحول ذات المعنى الذي ذكره القرطبي يقول السفاريني : " والحاصل أن من الذين يذادون عن الحوض جنس المفترين على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم من المحدثين في الدين من الروافض والخوارج وسائر أصحاب الأهواء والبدع المضلة " [2]

فهذه بعض الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الافتراق , وحذرت منه ومن خطورته , وحثت المسلمين على الاجتماع ونبذ ما من شأنه أن يفرق صفهم ويضعفهم .

---

[1] - القرطبي , أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت : 671 هـ) , الجامع لأحكام القرآن , ح أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش , دار الكتب المصرية – القاهرة - , ط 2 , 1384 هـ , ج 4 ص 168 .

[2] - السفاريني , محمد بن أحمد (ت 1128 هـ) , لوامع الأنظار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيئة في عقد الفرقة المرضية , مؤسسة الخافقين ومكتباتها – دمشق - , ط 2 , 1402 هـ , ج 2 ص 197 .

ثانيا : شواهد من الحديث الشريف

تعددت الإشارات في الحديث الشريف إلى هذا الأمر , وفيها النهي من النبي صلى الله عليه وسلم عن الخوض في مسائل من شأنها أن تعود على المسلمين بالفرقة والنزاع , والدعوة إلى لزوم الجادة والابتعاد عن المضلات , ومنها :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " سمعت رجلا قرأ آية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فعرفت في وجهه الكراهية وقال : كلاكما محسن ولا تختلفوا ؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا " [1]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : هجَّرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما . قال فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية . فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . يعرف في وجهه الغضب . فقال : " إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب " [2]

وعن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع : " استنصت الناس ؛ فقال : لا ترجعوا بعدي كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض " [3]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : " قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم , فقال يا رسول الله : اعدل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك ومن يعدل إن لم أعدل , قد خبت وخسرت إن لم أعدل , فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله , ائذن لي فيه أضرب عنقه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه ؛ فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم , وصيامه مع صيامهم , يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم , يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية , ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء , ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء , ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شيء وهو القدح , ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء , سبق الفرث والدم , آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة , أو مثل البضعة تدردر ,

---

[1] - رواه البخاري , كتاب أحاديث الأنبياء , باب حديث الغار , برقم : 3241 .

[2] - رواه مسلم ، كتاب العلم ، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن ، برقم (2666).

[3] - رواه مسلم , كتاب الإيمان , باب بيان معنى قول النبي لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض , برقم 65 0

يخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعت " [1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ترد علي أمتي الحوض , وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا يا رسول الله : أتعرفنا ؟ قال : نعم ؛ لكم سيما ليست لأحد غيركم , تردون علي غراً محجلين من آثار الوضوء , وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول : يا رب هؤلاء أصحابي فيجيبني ملك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك " [2]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية ، ومن خرج على أمتي يضرب برها و فاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه " [3]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " [4]

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه – قال : " خط لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوما خطا ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ : " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [الأنعام : 153] " [5]

---

[1] - رواه مسلم , كتاب الزكاة , باب ذكر الخوارج وصفاتهم , برقم 1064 .

[2] - رواه مسلم , كتاب الطهارة , باب ترد علي أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله , برقم : 247

[3] - رواه مسلم , كتاب الإمارة , يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس , برقم : 1848 .

[4] - رواه مسلم , كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات , باب ما يباح به دم المسلم , برقم : 1676 .

[5] - رواه الدارمي وأحمد والنسائي وقال الألباني : حديث صحيح (مشكاة المصابيح 59/1) .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : " أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا ؟ وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا ؟ فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج كأنما فقئ في وجهه حب الرمان ، فقال : بهذا أمرتم ؟ أو بهذا بعثتم ؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا ، إنكم لستم مما هاهنا في شيء ، انظروا الذي أمرتم به ، فاعملوا به ، والذي نهيتم عنه ، فانتهوا " [1]

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال : " لقد جلست أنا و أخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم , فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ، ويقول : مهلا يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه " [2]

فهذه عشرة أحاديث تشهد بالصحة لمعنى حديث الافتراق , صراحة أو ضمنا , فتحذير النبي صلى الله عليه وسلم من التنازع دليل على تحقق وقوعه , ونهيه عن المراء في آيات الله سد لذريعة التفرق , بسبب ما سينتج عن هذا المراء من آراء متباينة ومتفرقة .

---

[1] - رواه أحمد , مسند المكثرين من الصحابة , بهذا أمرتم أو بهذا بعثتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض , برقم : 6806 , قال الشيخ أحمد شاكر في التعليق على المسند : إسناده صحيح. انظر: 73/11 .

[2] - رواه أحمد , مسند المكثرين من الصحابة , إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا بل يصدق بعضه بعضا , برقم : 6663 , وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند (11 / 305) .

المبحث الثاني : تحليل متن حديث الافتراق

المطلب الأول : دروس مستفادة من الحديث

تعرضت في المبحث السابق لدراسة أسانيد روايات هذا الحديث , للوصول إلى تحديد درجته والحكم عليه , وانتهيت إلى صحته أو حسنه على الأقل , وفي هذا المبحث سأتناول متنه بالتحليل لاستخلاص أهم الدروس والأحكام الواردة فيه , وهذه الدروس والأحكام لا يمنع ضعف الحديث – عند من ضعفه - من الأخذ بها , وذلك لأن المعاني التي تضمنها الحديث شهدت لها شواهد من القرآن والسنة , أتيت على ذكر بعضها في المبحث السابق .

وسأعمل على الاستدلال لكل مسألة مستفادة من الحديث بما يناسب المقام من أدلة , من القرآن والسنة , أو من كلام أهل العلم الذين تناولوا الحديث بالشرح والدراسة .

أولا : الإخبار عن الافتراق للتحذير لا التسليم

إن حديث الافتراق لا يختلف عن أشباهه من أحاديث الإخبار بالمغيبات , و أحاديث الوعيد التي يحذر النبي صلى الله عليه وسلم فيها المسلمين من فعل أو كلام يستحقون به غضب الله تعالى , ويتعرضون فيه لعذابه , لذا كان لزاما على المسلمين أن يتعاملوا معه تعاملهم مع تلك الأحاديث , يصدقون ما فيها , فما كان خيرا استبشروا به و اجتهدوا لنيله , وما كان غير ذلك استعاذوا بالله منه , واجتهدوا في توقيه والحذر منه , من أمثلة هذه الأحاديث :

1 - روى البخاري عن أبي عامر أو أبو مالك الأشعري - والله ما كذبني - أنه : سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول " ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر , والحرير، والخمر , والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم لحاجة فيقولون : ارجع إلينا غدا ، فيبيتهم الله ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة " [1]

2 - وعن عوف بن مالك قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال " اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى

[1] - رواه البخاري , كتاب الأشربة , باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه , برقم 5590 .

بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا " [1]

3 - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن بين يدي الساعة أياما ؛ يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج " [2]

فهذه الأحاديث لفتت المسلمين إلى وقوع أحداث قبل يوم القيامة , كي يأخذوا حذرهم ويحتاطوا لها , وليس لكي يسلموا بوقوعها ويتعاملوا معها بسلبية , ويكون غاية ما يفعلونه تجاهها هو مراقبة الأيام لتحديد الزمن الذي أشارت إليه الأحاديث .

ومما سبق يتبين لنا فساد رأي من ضعف الحديث لأنه في نظره يقدح في خيرية أمة محمد ويصفها بالتفرق والتشرذم , فالإخبار كما تقدم كان على سبيل الإخبار والإنذار , وهو يشير إلى سنة كونية على المسلمين التداعي لدفعها بالسنن الشرعية , وهي الاعتصام بحبل الله والتمسك بهدي النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : المراد بالأمة أمة الإجابة لا الدعوة

وممن أشار إلى ذلك الأمير الصنعاني , قال رحمه الله : " ولما كان حديث الافتراق مشكلا كما ترى ؛ أجاب بعضهم بأن المراد بالأمة فيه أمة الدعوة لا أمة الإجابة , يعني أن الأمة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته هي المفترقة إلى تلك الفرق , وأن أمة الإجابة هي الفرقة الناجية , يريد بها من آمن بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم , فلا إشكال , وهذا جواب حسن لولا أن يبعده وجوه ؛ الأول : أن لفظ أمتي حيث جاء في كلامه صلى الله عليه وسلم لا يراد به إلا أمة الإجابة غالبا , كحديث : أمتي أمة مرحومة وحديث : لا تزال طائفة من أمتي , وحديث أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة " **[3]**

---

[1] - رواه البخاري , كتاب الجزية , باب ما يحذر من الغدر , برقم : 3005 .

[2] - رواه البخاري , كتاب الفتن , يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الهرج , برقم : 6653 .

[3] - الصنعاني , محمد بن إسماعيل بن صلاح (ت 1182 هـ) , افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة , ح : سعد بن عبد الله السعدان , ط 1 , 1415 هـ , ج 1 ص 56 – 57 .

والقرينة التي ترجح أن المراد في الحديث أمة الإجابة , أن إرادة أمة الدعوة تجعل المعنى ركيكا , على خلاف البلاغة النبوية , لأن نجاة المسلمين وهلاك ما سواهم أمر معلوم من الدين بالضرورة , ولا يحتاج أن يشار إليه في نص نبوي كهذا .

ثالثا : (كلها في النار) وعيد لا تكفير

أشرت في بداية هذا المطلب أن حديث الافتراق من أحاديث الوعيد , التي لا يلزم منها الحكم على معينين , ومنه ؛ فإن عبارة " كلها في النار " التي في الحديث قد وردت أيضا في سياق الوعيد والترهيب , وليست تعني أبدا الحكم بالكفر على المعني بوصف الفرقة , غير أن الذين يضلون فيفارقون السنة , يترددون بين أحوال أهونها أن يكون أحدهم متأولا مغفورا له , وأشدها أن يكون قد فارق الجماعة ببدعة أو اعتقاد مكفر , وعندها يحكم عليه بالكفر لأجل تلك البدعة لا لتفرقه , ويلزم من هذه الإشارة كذلك الاعتقاد أن الوعيد للمفارقين بالنار لا يقتضي خلودهم فيها , فالحال يختلف بحسب مدى المفارقة كما بينت .

فالمراد هو التحذير من التفرق عن سبيل السنة , لأنه يعرض صاحبه لعذاب الله تبارك وتعالى , ويشهد لهذا المعنى جملة من النصوص الشرعية ومنها :

قوله تعالى : { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود : 113]

وفي الحديث عن ابن عباس - رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء , يكفرن . قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط " [1]

والشاهد من الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان أخبر النساء أنهن أكثر أهل النار , فإنهن فهمن كلامه على سبيل التحذير , لا الحكم على معينين , كما أنه لا يستقيم بحال أن يكون المراد من الحديث الحكم بالكفر على النساء , ولهذا المعنى قرينتان : الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم بين الأمر للصحابي الذي سأل , والثاني أنه من المحال أن يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بتكفير الناس من دون جريرة ولا ذنب , إذن ؛ فالمراد من الحديث

[1] - رواه البخاري , كتاب الإيمان , باب كفران العشير وكفر دون كفر , برقم : 29 .

تحذير من تتصف من النساء بهذه الصفة , ودعوة لها لتجنبها قدر استطاعتها , لتدفع بذلك العذاب عن نفسها .

رابعا : الحكمة من عدم تحديد الفرق الهالكة

لقد عني الحديث الشريف بتحديد الفرقة الناجية وبيان حالها , لكنه أعرض عن ذكر حال المخالفين , وفي ذلك حكم كثيرة أهمها :

1 - بيان أهمية معرفة حال الفرقة الناجية ؛ لأنه المراد المقصود من الحديث , وهو ما يتوجب على المسلم أن يعتني بمعرفته , كما أن النبي الكريم يخاطب عموم المسلمين , وهؤلاء يهمهم معرفة سبيل النجاة كي يسلكوه , على أن معرفة سبل الضلال قد تشغل البعض , وهو ما ندب علماء الأصول ممن صنف في الفرق أنفسهم له , ومن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ندب نفسه لهذا المطلب النفيس , ومثال ذلك ما روي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال : " كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله , إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم , قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : نعم، وفيه دخن , قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر , قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها , قلت : يا رسول الله ، صفهم لنا ؟ فقال: هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا , قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) [1]

2 - وفيه كذلك صيانة لوصف حال الفرقة الناجية من التحريف والتغيير , فلو كانت الإشارة للفرق الضالة ؛ لأصبح تعيين الناجية راجعاً إلى اجتهادات الناس وتأويلاتهم وأهوائهم , وهذا يفوت – بالضرورة – المقصد من الحديث , ومن الطريف أنه مع تعيين النبي الكريم لحال الفرقة الناجية , وجدنا من يخضع وصفها لمزاجه وهواه , ومن ذلك ما صنعه الرافضي النصير الطوسي [2] , ومن كلامه عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم "ستفترق أمتي على ثلاث

---

[1] - رواه البخاري , كتاب المناقب , باب هلاك أمتي على يدي غلمة من قريش , برقم : 3411 .

[2] - هو: محمد بن محمد بن نصير الدين الطوسي الفيلسوف ، كان ذا حظوة عند هولاكو ووزر له ، استغل مكانته في التنكيل بأهل السنة والإساءة إليهم والتشفي منهم. كان مولده سنة 597 ووفاته ببغداد سنة 672. انظر ترجمته في : فوات الوفيات 3/ 246 و شذرات الذهب 5 / 339 .

وسبعين فرقة ، واحدة منها ناجية والباقي في النار : " وقد عين عليه السلام الفرقة الناجية والهالكة في حديث آخر صحيح متفق عليه ، وهو قوله : مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف غرق ؛ فوجدنا الفرقة الناجية هي : الفرقة الإمامية ؛ لأنهم باينوا جميع المذاهب، وجميع المذاهب قد اشتركت في أصول العقائد " [1]

وهذا استدلال فاسد , فمجرد مخالفة فرقته لبقية فرق المسلمين لا يكفي بحال لجعلها الفرقة الناجية , فالمخالفة في الأصول تخرج أصحابها من الإسلام , فضلا عن إخراجهم من مسمى أهل السنة .

ولئن كان النصير الطوسي صرح باسم فرقته على أنها الفرقة الناجية , فإن فرقا أخرى عمدت إلى التحكم بالمعنى المراد من الحديث , لينطبق الوصف عليها , ومنهم من تحكم بضابط " ما أنا عليه وأصحابي " ليسقط الوصف فيه على فرقته , وهؤلاء انشغلوا بمتن الحديث عن الجوهر المراد منه , وكأن المراد منه منح صك براءة أو حتى عصمة لتلك الفرقة , ولو تدبروا لعلموا أنه تكليف ؛ إن قاموا بحقه نالوا التشريف .

---

[1]- الحلي , الحسين بن يوسف بن المطهر , منهاج الكرامة , (مطبوع مع منهاج السنة لابن تيمية) , مطبعة المدني , القاهرة , ج 1 ص 95 .

المطلب الثاني : أخطاء في توظيف الحديث

تعرض متن حديث الافتراق لمحاولة توظيفه في غير السياق الذي ورد فيه , ولسنا نجزم أن الدافع لذلك سوء الطوية أو النية السيئة , فالمخطئ قد يكون أتي من قبل سوء فهمه للحديث , وهنا أشير إلى بعض صور التوظيف الخاطئ للحديث مع بيان التوجيه السليم لفهمه .

أولا : جعل الحديث مستندا للطعن في المخالف

أشرت في المطلب السابق إلى أن ذكر الافتراق في هذا الحديث إنما جاء في سياق التحذير منه وليس التسليم بوقوعه , لذا ؛ فمن الخطأ أن ينظر المسلم إلى المجتمع بسلبية وهو ينتظر قدر الله فيه أن يتفرق و يتشرذم , فيجهد هو في أن ينجو بنفسه , ويترك بقية الأمة للضياع والهلكة , بل إن الواجب في هذا الباب أن يعمل ما يستطيع كي يلم شمل الأمة ويجمع شتاتها , قال ابن حزم : " وقد نص تعالى على أن الاختلاف ليس من عنده ومعنى ذلك أنه تعالى لم يرض به وإنما أراده تعالى إرادة كون كما أراد كون الكفر وسائر المعاصي " [1]

فالمسلم يتعامل مع موضوع الافتراق تعامله مع سائر المعاصي , فهو على يقين من إمكان وقوعها إن هو فرط في جنب الله , ولذا فهو يجتهد في التقرب إلى الله بدفعها ما استطاع ذلك .

والمخطئون في فهم الحديث في هذه الجزئية لم يعتبروه دافعا وباعثا للتفرق , إنما – في الغالب – حملهم فهمهم على التهوين من شأن الفرقة والاختلاف , فإذا كان الحديث قد سلم بوقوعه شرعا , فكيف لا نسلم به واقعاً , وهذه من صور التعامل السلبي مع النصوص التي أخبرت عن الفتن في آخر الزمان , فذكر الفتن لتحذير المسلم وحثه على اجتنابها , لا لكي يستسلم لها , ويكل عن مدافعتها والداعين لها , والأسوأ أن يتخذ بعض المنتسبين إلى أهل العلم الحديث مستندا للطعن في المخالفين , وهذه من أفدح الأخطاء في التعامل مع الحديث ؛ وذلك بأن يتخذ الحديث دليلا ومستندا للطعن في المخالف في مسائل العلم , ورميه بأنه من الفرق الهالكة التي توعدها الله تعالى بالنار , بل قد يفضي هذا الخطأ بأن يجزم للمخالف بالنار من أجل خلاف بسيط . ومن صوره كذلك التعسف في إطلاق وصف النجاة على فرقة دون غيرها , والحكم على المخالف بالضلال , وذلك لأن المدعي افترض أوصافا للفرقة الناجية لم يملك دليلا

---

[1] - ابن حزم , أبو محمد علي بن أحمد (ت : 456 هـ) , الإحكام في أصول الأحكام , ت : احمد محمد شاكر , دار الآفاق الجديدة – بيروت - , ج 5 ص 67 .

على صحتها , وفي ذلك يقول ابن تيمية : " وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات , وذكروهم في كتب المقالات ، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل ، فإن الله حرم القول بلا علم عموماً ، وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً (...) فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى ، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة ، ويجعل من خالفها أهل البدع ، وهذا ضلال مبين , فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم " [1]

كذلك فإن بعض النصوص الواردة عن السلف في ذكر أوصاف هذه الفرقة حمل البعض على ادعاء احتكار هذه الصفات في طائفته دون غيرها , ومن الأمثلة على النقول عن السلف التي أسيء توظيفها ما نقل عن النووي من قوله :

" وأما هذه الطائفة فقال البخاري : هم أهل العلم , وقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم , و قال القاضي عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث " [2]

و مع أن كلام الإمام أحمد قد يحمل على أنه أراد أكثر أهل الطائفة , أو فيه إشارة إلى انشغالهم بالرد على الزنادقة والمبتدعة الذين جعلوا من الأحاديث غرضا لطعنهم وتشكيكهم , فانبرى لهم أهل الحديث بالرد وتفنيد شبههم وردها .

إلا أن البعض وقفوا عند حدود مثل هذه النقول , وجزموا بأن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة هم المشتغلون بصنعة الحديث , واخذوا يكيلون التهم جزافا لمخالفيهم , وهؤلاء يرد عليهم من كلام النووي نفسه , الذي استطرد قائلا : " قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض " [3]

---

[1] - ابن تيمية , تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت : 728 هـ) , مجموع الفتاوى , مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية ، 1416 هـ , ج 3 ص 346 .

[2] - النووي , أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت : 676 هـ) , المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج , دار إحياء التراث العربي – بيروت - , ط 2 , 1392 هـ , ج 13 ص 66 .

[3] - المصدر السابق : ج 13 ص 67 .

ويشهد لهذا المعنى كلام ابن تيمية : " أما الطائفة بالشام ومصر ونحوهما فهم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام ، وهم من أحق الناس دخولا في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الأحاديث الصحيحة المستفيضة عنه : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم ، حتى تقوم الساعة , وفي رواية لمسلم : لا يزال أهل المغرب " [1]

والطائفة المنصورة التي يشير إليها ابن تيمية في كلامه هي جزء من الفرقة الناجية , وذهب بعض أهل العلم إلى أن تسمية الطائفة المنصورة مرادفة للفرقة الناجية , والخلاف في هذه المسألة لا يغير شيئا من أوصاف هذه الطائفة , ووصف الطائفة المنصورة يعني أن أهلها في نزاع و مدافعة دائمة لأهل الباطل , وهو ما لزم منه وصفهم بالظهور على عدوهم وقهرهم له .

وقد أشار الألباني إلى هذا التفريق , قال رحمه الله : " وأما ما أثاره في هذه الأيام أحد إخواننا الدعاة من التفريق بين (الطائفة المنصورة) و (الفرقة الناجية) ، فهو رأي له ، ولا أراه بعيداً عن الصواب ، فقد تقدَّم هناك النقل عن أئمة الحديث في تفسير الطائفة المنصورة أنهم أهل العلم وأصحاب الآثار ، وبالضرورة تعلم أنه ليس كل من كان من الفرقة الناجية هو من أهل العلم بعامة ، بله من أهل العلم بالحديث بخاصة ، ألا ترى أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هم الذين يمثلون الفرقة الناجية ، ولذلك أمرنا بأن نتمسك بما كانوا عليه ، ومع ذلك فلم يكونوا جميعاً علماء ، بل كان جمهورهم تابعاً لعلمائهم ؟ فبين (الطائفة) و (الفرقة) عموم وخصوص ظاهران ، ولكني مع ذلك لا أرى كبير فائدة من الأخذ والرد في هذه القضية حرصاً على الدعوة ووحدة الكلمة " [2]

---

[1] - مجموع الفتاوى : ج 3 ص 548 .
[2] - سلسلة الأحاديث الصحيحة ج1 ص 932 .

ثانيا : عدم التفريق بين الافتراق والاختلاف

نبدأ بتعريف الاختلاف , فعند ابن فارس قال : " وأما قولهم : اختلف الناس في كذا ، والناس خلفة أي مختلفون ، فمن الباب الأول ; لأن كل واحد منهم ينحي قول صاحبه ، ويقيم نفسه مقام الذي نحاه "[1] وهو في الفروق " ذهاب أحد الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر" [2]

والاختلاف غير الافتراق , فالافتراق أشد من الاختلاف , وإن كان من جنسه , جاء في الموسوعة الفقهية :

" الاختلاف نقيض الاتفاق , جاء في اللسان ما مفاده : اختلف الأمران لم يتفقا , وكل ما لم يتساو فقد اختلف , والخلاف : المضادة ، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه ، أو قصده بعد أن نهاه عنه , أما الافتراق والتفرق والفرقة فبمعنى أن يكون كل مجموعة من الناس وحدهم , ففي القاموس : الفريق القطيع من الغنم، والفريقة قطعة من الغنم تتفرق عنها فتذهب تحت الليل عن جماعتها, فهذه الألفاظ أخص من الاختلاف " [3]

والفرق بين الاختلاف والافتراق يتلخص في النقاط الآتية : [4]

1- الافتراق أشد أنواع الاختلاف ، بل هو من ثمار الخلاف، إذ قد يصل الخلاف إلي حد الافتراق، وقد لا يصل , فالافتراق اختلاف وزيادة .

2- ليس كل اختلاف افتراق ، بل كل افتراق اختلاف .

3- أن الافتراق لا يكون إلا علي أصول كبرى، أي أصول الدين التي لا يسع الخلاف فيها ، والتي ثبتت بنص قاطع أو بإجماع , أو استقرت منهجًا عمليًا لأهل السنة والجماعة لا يختلفون عليه، فما كان كذلك فهو أصل ، من خالف فيه فهو مفترق، أما مادون ذلك فإنه يكون من باب الاختلاف ، فالاختلاف يكون فيما دون الأصول مما يقبل التعدد في الرأي ، ويقبل الاجتهاد .

---

[1] - مقاييس اللغة : ج 2 ص 213 .

[2] - العسكري , أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت: نحو 395هـ) , الفروق اللغوية , دار العلم والثقافة – القاهرة (د . ط) (د . س) – ج 1 ص 157 .

[3] - انظر : الموسوعة الفقهية الكويتية , وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية (الكويت) , دار السلاسل – الكويت – ط 2 , ج 2 ص 291 وما بعدها .

[4] - بتصرف عن رسالة لطيفة للدكتور ناصر العقل بعنوان : (الافتراق : مفهومه ،أسبابه ، سبل الوقاية منه) وهي تفريغ لمحاضرة ألقاها الدكتور في الرياض في شهر ربيع الثاني عام 1412هـ .

4- الاختلاف قد يكون عن اجتهاد، وعن حسن نية ، ويؤجر عليه المخطئ ما دام متحرياً للحق ، والمصيب أكثر أجراً ، وقد يحمد المخطئ على الاجتهاد أيضاً ، أما إذا وصل إلى حد الافتراق ، فهو مذموم كله , بينما الافتراق لا يكون عن اجتهاد ، ولا عن حسن نية ، وصاحبة لا يؤجر بل هو مذموم وآثم علي كل حال ، ومن هنا فهو لا يكون إلا عن ابتداع ، أو عن اتباع هوى ، أو تقليد مذموم .

5- أن الافتراق يتعلق به الوعيد وكله شذوذ وهلكة ، أما الاختلاف فليس كذلك مهما بلغ الخلاف بين المسلمين في أمور يسع فيها الاجتهاد .

الفصل الثاني

أسباب الافتراق العقدي

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الأسباب الداخلية

المبحث الثاني : الأسباب الخارجية

المبحث الأول : الأسباب الداخلية

المطلب الأول : الموقف من مصادر التلقي

إن من أهم ما أودى بالأمة في هاوية الافتراق , اختلافهم في الموقف من مصادر التلقي , و قد رتبت مواقفهم بحسب المصادر الثلاثة :

أولاً : موقفهم من النصوص الشرعية من جهة فهمها , وذلك من خلال قضية المحكم والمتشابه في القرآن الكريم.

ثانيا : موقفهم من النصوص الشرعية من جهة ثبوتها وحجيتها .

ثالثا : موقفهم من علاقة العقل بالنقل .

وسأعمل على توضيح كل من هذه النقاط فيما سيأتي :

أولا : الموقف من المحكم والمتشابه

أ . المحكم والمتشابه لغة : أما المحكم فقد عرفه ابن منظور بقوله : " والعرب تقول: حكمت وأحكمت وحكّمت بمعنى منعت ورددت ، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكماً ، لأنه يمنع الظالم . قال الأصمعي: أصل الحكومة رد الرجل عن الظلم . قال : ومنه سميت حكمة اللجام، لأنها ترد الدابة، وقال الأزهري: وحكم الشيء وأحكمه كلاهما منعه من الفساد "[1] وفي المتشابه قال " الشبه والشبه والشبيه المثل والجمع أشباه، وأشبه الشيء ماثله "[2]

ب . المحكم والمتشابه اصطلاحا : ذكر لهما الإمام ابن جرير الطبري عدة تعريفات منها :

" المحكم : المعمول بهن وهن الناسخات أو المثبتات الأحكام ، والمتشابهات من الآيات المتروك العمل بهن , أي المنسوخات .

المحكمات من آي الكتاب : ما أحكم الله فيه بيان حلاله وحرامه ، والمتشابه منها ما أشبه بعضه بعضا في المعاني وإن اختلف ألفاظه .

المحكمات من آي الكتاب ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد ، والمتشابه منها ما احتمل من التأويل أوجها .

---

[1] - لسان العرب : ج 12 ص 141- 143 .
[2] - المصدر السابق : ج 13 ص 503 .

المحكم ما أحكم الله فيه من آي القرآن وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم ففصله ببيان ذلك لمحمد وأمته ، والمتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ واتفق المعاني .

المحكم : ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت خروج عيسى بن مريم والدجال، وحقيقة نعيم الجنة وغير ذلك " [1]

ج . أقوال المفسرين في المحكم والمتشابه

وقد تمحورت أقوال المفسرين والمتكلمين في هذا الباب حول آية من سورة آل عمران , أشار فيها رب العزة إلى اختلاف مواقف المسلمين تجاه ما تشابه من الكتاب , وهي قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ } [آل عمران : 7]

وعند استعراض أقوال المفسرين في هذه الآية , لتجلية أبعاد الخلاف حول المحكم والمتشابه في كتاب الله تعالى , يحسن الإشارة عند الضرورة إلى المدرسة العقدية التي ينتمي إليها المفسر , يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى : " فتأويل الكلام إذا : إن الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، هو الذي أنزل عليك يا محمد القرآن ، منه آيات محكمات بالبيان ، هن أصل الكتاب الذي عليه عمادك وعماد أمتك في الدين ، وإليه مفزعك ومفزعهم فيما افترضت عليك وعليهم من شرائع الإسلام وآيات أخر ، هنّ متشابهات في التلاوة مختلفات في المعاني " [2]

ثم ساق أقوال السلف في تعريف المحكم والمتشابه , والتي أتيت على ذكرها عند تعريف المحكم والمتشابه اصطلاحا , وعقب عليها قائلا : " وذلك أن جميع ما أنزل الله عز وجل من آي القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنما أنزله عليه بيانا له ولأمته وهدى للعالمين ، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه ، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة ، ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل . فإذ كان ذلك كذلك ، فكل ما فيه بخلقه إليه الحاجة , وإن كان في بعضه ما بهم عن بعض معانيه الغنى (...) فإذ كان المتشابه هو ما وصفنا ، فكل ما عداه فمحكم ؛ لأنه

---

[1] - انظر : الطبري , محمد بن جرير (ت 310 هـ) : جامع البيان في تأويل القرآن , ح : أحمد شاكر , مؤسسة الرسالة , 2000 م , ج 6 ص 174 وما بعدها .

[2] - المصدر السابق : ج 6 ص 174 .

لن يخلو من أن يكون محكماً بأنه بمعنى واحد لا تأويل له غير تأويل واحد ، وقد استغني بسماعه عن بيان يبينه أو يكون محكماً ، وإن كان ذا وجوه وتأويلات وتصرف في معان كثيرة , فالدلالة على المعنى المراد منه ، إما من بيان الله تعالى ذكره عنه ، أو بيان رسوله صلى الله عليه وسلم لأمته , ولن يذهب علم ذلك عن علماء الأمة لما قد بينا " [1]

وخلاصة كلامه رحمه الله أن المؤمنين في حاجة إلى كل ما في القرآن الكريم , وإن كانوا في غنى عن معرفة بعض معانيه , ثم أشار إلى أن المحكم في القرآن هو ما عرف معناه بمجرد سماعه , إن احتاج تأويلاً فلا بد أن يكون لذلك التأويل قرينة تدل على صحته من بيان القرآن لذلك المعنى , أو تفسير السنة له .

وأشار الرازي الأشعري [2] إلى التحكم الذي يقوم به أصحاب المقالات والمذاهب , فإن كلا منهم يصرف الآية لتوافق ما يعتقده , وخلص إلى أن اللفظ إن حمل على المعنى المتبادر منه سمي محكما , وإن أولناه ؛ أي صرفناه إلى معنى آخر سمي متشابها , فقرن رحمه الله بين وجود المحكم وتأويله , وهذا نتيجة تأثير المدرسة الكلامية التي ينتسب إليها .

قال رحمه الله : " واعلم أن هذا موضع عظيم فنقول : إن كل واحد من أصحاب المذاهب يدعي أن الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ، وأن الآيات الموافقة لقول خصمه متشابهة ، فالمعتزلي يقول : قوله تعالى : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر محكم ، وقوله : وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين متشابه . والسني يقلب الأمر في ذلك , فَلا بد هاهنا من قانون يرجع إليه في هذا الباب فنقول : اللفظ إذا كان محتملاً لمعنيين وكان بالنسبة إلى أحدهما راجحاً ، وبالنسبة إلى الآخر مرجوحاً , فإن حملناه على الراجح ولم نحمله على المرجوح ، فهذا هو المحكم وأما إن حملناه على المرجوح ولم نحمله على الراجح ، فهذا هو المتشابه فنقول : صرف اللفظ عن الراجح إلى المرجوح لا بد فيه من دليل منفصل ، وذلك الدليل المنفصل إما أن يكون لفظيا وإما أن يكون عقليا " [3]

---

[1] - الطبري , جامع البيان : ج6 ص 180 – 182 .

[2] - الأشاعرة فرقة إسلامية تنتسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري - رحمه الله – (ت 324 هـ) في مذهبه الذي صار إليه بعد تركه الاعتزال , وتنتهج أسلوب أهل الكلام في تقرير العقائد والرد على المخالفين , ومن كبار علمائهم الباقلاني والرازي والجويني , للمزيد انظر : مذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوي ج 1 ص 487

[3] - الرازي , محمد بن عمر بن الحسن (ت 606 هـ) : مفاتيح الغيب , دار إحياء التراث العربي – بيروت - , ط 3 , 1420 هـ , ج 7 ص 139 .

د . الحكمة من ورود المتشابه في القرآن :

يجيب ابن الجوزي البغدادي عن السؤال عن الحكمة من إنزال المتشابه من كتاب الله فيقول " أحدها : أنه لما كان كلام العرب على ضربين ؛ أحدهما : الموجز الذي لا يخفى على سامعه، ولا يحتمل غير ظاهره . والثاني: المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات ، وهذا الضرب الثاني هو المستحلى عند العرب ، والبديع في كلامهم ، أنزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين ، ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله ، فكأنه قال : عارضوه بأي الضربين شئتم . (...) والجواب الثاني : أن الله تعالى أنزله مختبراً به عباده ، ليقف المؤمن عنده ، ويردّه إلى عالمه ، فيعظم بذلك صوابه ، ويرتاب به المنافق ، فيداخله الزيغ ، فيستحق بذلك العقوبة ، كما ابتلاهم بنهر طالوت . والثالث : أن الله تعالى أراد أن يشغل أهل العلم بردّهم المتشابه إلى المحكم فيطول بذلك فكرهم، ويتصل بالبحث عنه اهتمامهم فيثابون على تعبهم ، كما أثيبوا على سائر عباداتهم ، ولو جعل القرآن كله محكماً لاستوى فيه العالم والجاهل . (...) والرابع : أن أهل كل صناعة يجعلون في علومهم معاني غامضة، ومسائل دقيقة ليحرجوا بها من يعلمون، ويمرنوهم على انتزاع الجواب، لأنهم إذا قدروا على الغامض، كانوا على الواضح أقدر، فلما كان ذلك حسناً عند العلماء ، جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو " [1]

وخلاصة كلامه رحمه الله أن وجود المتشابه في القرآن هو من تمام إعجازه بلاغيا , وهو تمرين للعلماء على تدبر القرآن واستخراج ما فيه من كنوز , وهو أيضا امتحان للمؤمنين في تسليمهم لله تعالى , من دون اعتراض قائم على تأويل أو تحريف , ونظير ذلك طلب الله تعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم , فالفعل وإن كان ظاهره سجود لغير الله تعالى , إلا أن الملائكة لزموا حدود التسليم فسجدوا , والشيطان طلب ما وراء الأمر , فأبى واستكبر , فكان جزاؤه الطرد والإبعاد , وكذلك هذه الآيات التي في الصفات , ويوهم بعضها التشبيه أو التجسيم , فإن الخير للمؤمن أن يلزم مقام التسليم , فيؤمن بها معتقدا تنزيه الله عن مشابهة مخلوقاته , لا أن يعمد إلى تأويلها أو تعطيلها , واضعا نفسه وصيا على كلام الله تعالى , يخشى منه على عقائد العوام .

---

[1] - ابن الجوزي , أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) : زاد المسير في علم التفسير , ت : عبد الرزاق المهدي , دار الكتاب العربي , ط 1 , 1422 هـ , ج 1 ص 259 – 260 .

ويجيب الزمخشري والذي نصر في تفسيره بعض آراء الاعتزال [1] عن ذات السؤال بقوله : " فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟ قلت : لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله ، ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف ، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم ، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه " [2]

وهنا يظهر من كلام الزمخشري تعظيمه للعقل , ووصفه بأنه الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله إلا به , وأكد أن من حكم إيراد المتشابه أن يعمل المسلم فكره في كتاب الله , ويظهر هنا تأثره بالنزعة العقلية , من خلال تعظيمه للنظر العقلي واعتباره الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله تعالى وتوحيده إلا به .

هـ . تحرير الخلاف حول المحكم والمتشابه

ونخلص هنا أن الآيات المشتبهات : هي التي لا يتضح معناها مباشرة ، وإن لم تشبه غيرها ؛ لاحتمالها أكثر من وجه من التأويل ، أو لا شتباه معناها أحيانا مع آيات أخرى ، إما من حيث اللفظ ، أو من حيث المعنى ، أومن حيث اللفظ والمعنى ؛ ولذا يحتاج فهمها إلى نظر وتدقيق ، وقد لا يدرك تأويلها الذي بمعنى حقيقتها وكنهها مع النظر والتدقيق لأنها مما استأثر الله بعلمها .

وبناء على ذلك فإن الخلاف في موضوع المحكم والمتشابه بني على أساس أن ما هو متشابه في القرآن الكريم أعطى الله تبارك وتعالى علمه للمسلمين , وجعل سبيل ذلك أن يعملوا عقولهم بحثا ونظرا في القرآن الكريم , فالسلف رأوا أن المتشابه قسمان علم المسلمون معناهما : قسم اختص الله بعلم حقيقة ما يراد من معناه , ومثال ذلك آيات الصفات , التي تحدثت عن ذات الله تعالى , والقسم الآخر مكن الله طائفة من أهل العلم من تجلية حقيقته وفهم كنهه والمراد

---

[1] - المعتزلة : فرقة كلامية إسلامية، ظهرت في أول القرن الثاني الهجري ، وقويت في العصر العباسي الأول , وهذه الفرقة تعتد بالعقل وتغلو فيه وتقدمه على النقل، ولها أصول خمسة يدور عليها المذهب هي : العدل، والتوحيد، والمنزلة بين المنزلين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر , للمزيد انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص 117 , الملل والنحل للشهرستاني ج 1 ص 46 .

[2] - الزمخشري , أبو القاسم محمود بن عمرو (ت 538 هـ) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل , دار الكتاب العربي – بيروت - ط 3 , 1407 هـ ,ج 1 ص 338 – 339 .

منه , ومثال ذلك غوامض مسائل الفقه والتأويل , أما المتكلمون فألزموا المسلمين بالتأويل حيال القسم الأول لاستحالة القول بالمعنى الظاهر منه , واتفقوا مع السلف فيما يخص الثاني .

ثانيا : الموقف من مصادر التلقي من جهة الثبوت (حديث الآحاد)

الجدل حول حديث الآحاد قديم , ومن أوائل من تكلم فيه الإمام الشافعي رحمه الله (ت : 204 هـ) متصديا لمثيري الشبه حول حجيته , وحديث الآحاد هو ما لم يتواتر سواء أكان من رواته شخص واحد أم أكثر [1] , ووجه الخلاف حوله أن السلف يرون أنه متى صح فإنه يفيد العلم اليقين مطلقا , وخالفهم المتكلمون الذين رأوا أنه في مسائل الاعتقاد إنما يفيد الظن لا اليقين , ولذا فإنهم يعمدون إلى تأويله إذا خالف القواطع العقلية أو النقلية , أو يشككون في صحته إن لم يجدوا له تأويلاً سائغاً .

قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله – موضحا مذهب السلف : " ومعلوم مشهور استدلال أهل السنة بالأحاديث ورجوعهم إليها، فهذا إجماع منهم على القبول بأخبار الآحاد ، وكذلك أجمع أهل الإسلام متقدموهم ومتأخروهم على رواية الأحاديث في صفات الله تعالى ومسائل القدر والرؤية وأصول الإيمان والشفاعة وإخراج الموحدين من المذنبين من النار (...) وهذه الأشياء، علمية لا عملية، وإنما تروى لوقوع العلم للسامع بها، فإذا قلنا خبر الواحد لا يجوز أن يوجب العلم حملنا أمر الأمة في نقل هذه الأخبار على الخطأ، وجعلناهم لاغين هازلين مشتغلين بما لا يفيد أحداً شيئاً ولا ينفعه ، ويصير كأنهم قد دونوا في أمور الدين ما لا يجوز الرجوع إليه والاعتماد عليه " [2]

وقد رأى بعض علماء الأشاعرة عدم الاحتجاج بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد إذا عارضت القواطع العقلية [3] , وممن رأى ذلك : ابن فورك [4] والرازي[5] .

والجويني رحمه الله يقول : " يتعين على كل معتن بالدين واثق بعقله أن ينظر فيما تعلقت به الأدلة السمعية ؛ فإن صادفه غير مستحيل في العقل ، وكانت الأدلة السمعية قاطعة في طرقها لا مجال للاحتمال في ثبوت أصولها ولا في تأويلها : فما هذا سبيله ، فلا وجه له إلا القطع به . وإن لم تثبت الأدلة السمعية بطرق قاطعة ، ولم يكن مضمونها مستحيلاً في العقل فلا سبيل إلى

---

[1] - انظر : العسقلاني , أحمد بن علي بن حجر (ت 852 هـ) : فتح الباري شرح صحيح البخاري , أشرف على طبعه : محب الدين الخطيب , دار المعرفة , بيروت ، 1379 هـ : ج 13 ص 233 .

[2] - ابن الموصلي , محمد بن محمد , مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة , ح: سيد ابراهيم , دار الحديث، القاهرة – مصر- , ط 1 , 1422هـ , ج 1 ص 586 .

[3] - سيأتي الحديث في الكلام على علاقة العقل بالنقل عند المتكلمين على حجتهم في هذا الباب .

[4] - انظر : ابن فورك , محمد بن الحسن (406 هـ) : مشكل الحديث وبيانه ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - 1980م , ص 269

[5] - انظر الرازي , محمد بن عمر (ت 606 هـ) : الأساس في التقديس 168. طبعة البابي الحلبي - مصر 1935م.

القطع ، لكن المتدين يغلب على ظنه ثبوت ما دل الدليل السمعي على ثبوته ، وإن لم يكن قاطعاً . وإن كان مضمون الشرع المتصل بنا مخالفا لقضية العقل فهو مردود قطعا بأن الشرع لا يخالف العقل ، ولا يتصور في هذا القسم ثبوت سمع قاطع به ولا خفاء به , فهذه مقدمة السمعيات لابد من الإحاطة بها " [1]

وهو كذلك رأي المعتزلة , قال القاضي عبد الجبار : " وإن كان - أي حديث الآحاد - مما طريقه الاعتقاد ينظر فإن كان موافقاً لحجج العقول قبل موجبه لا لمكانه بل للحجة العقلية، وإن لم يكن موافقا لها فإن الواجب ان يرد ويحكم بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقله وإن قاله فإنما قاله على طريق الحكاية عن غيره، هذا إذا لم يحتمل التأويل إلا بتعسف " [2]

ولبيان مدى أهمية الخلاف حول هذه المسألة , فسأعرض ما جمعه الإمام الألباني – رحمه الله – التي ثبتت بأحاديث الآحاد , ومنها [3] :

" 1 - نبوة آدم عليه السلام ، وغيره من الأنبياء الذين لم يُذكروا في القرآن .

2- أفضلية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء والرسل .

3- شفاعته صلى الله عليه وسلم العظمى في المحشر .

4 - شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته .

5 - معجزاته صلى الله عليه وسلم كلها ما عدا القرآن، ومنها معجزة انشقاق القمر، فإنها مع ذكرها في القرآن تأولوها بما ينافي الأحاديث الصحيحة المصرحة بانشقاق القمر معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

6 - صفاته صلى الله عليه وسلم البدنية وبعض شمائله الخلقية .

7 - الأحاديث التي تتحدث عن بدء الخلق وصفة الملائكة، والجن والجنة والنار، وأنهما مخلوقتان، وأن الحجر الأسود من الجنة .

---

1 – الجويني , عبد الملك بن عبد الله (ت 478 هـ) : الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد , ت : محمد يوسف موسى , دار السعادة , مصر , 1950 م , ص 360 .

[2] - القاضي عبد الجبار, شرح الأصول الخمسة : ص 770 .

[3] - شادي بن محمد بن سالم آل نعمان , موسوعة الإمام الألباني , مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية – صنعاء - , ط 1 , 2010 م , ج1 ص 340 وما بعدها .

8 - خصوصياته صلى الله عليه وسلم التي جمعها السيوطي في كتاب «الخصائص الكبرى» مثل دخول الجنة ، ورؤية أهلها وما أعد للمتقين فيها ، وإسلام قرينه من الجن وغيره ذلك .

9 - القطع بأن العشرة المبشرين بالجنة من أهل الجنة .

10 - الإيمان بسؤال منكر ونكير في القبر.

11 - الإيمان بعذاب القبر.

12 - الإيمان بضغطة القبر.

13 - الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة.

14 - الإيمان بالصراط.

15 - الإيمان بحوضه صلى الله عليه وسلم ، وأن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

16 - دخول سبعين ألفاً من أمته صلى الله عليه وسلم الجنة بغير حساب.

17 - سؤال الأنبياء في المحشر عن التبليغ.

18 - الإيمان بكل ما صح في الحديث في صفة القيامة والحشر والنشر.

19 - الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وأن الله تعالى كتب على كل إنسان سعادته أو شقاوته ورزقه وأجله.

20 - الإيمان بالقلم الذي كتب كل شيء.

21 - الإيمان بأن القرآن كتاب الله حقيقة لا مجازاً .

22 - الإيمان بالعرش والكرسي حقيقة لا مجازاً .

23 - الإيمان بأن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

24 - وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة .

25 - وأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

26 - وأن لله ملائكة سياحين يبلغون النبي صلى الله عليه وسلم سلام أمته عليه .

27 - الإيمان بمجموع أشراط الساعة ، كخروج المهدي ، ونزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال ، ودابة الأرض من موضعها ، وغيرها مما صحت به الأحاديث .

28 - وأن المسلمين يفترقون على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي التي تتمسك بما كان عليه الصحابة من عقيدة وعبادة وهدى .

29 - الإيمان بجميع أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، مما جاء في السنة الصحيحة، كالعلي ، والقدير، وصفة الفوقية والنزول وغيرها .

30 - الإيمان بعروجه صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلى ورؤيته آيات ربه الكبرى "

وقد أثبت رحمه الله في عده هنا أمورا ليست من العقائد , مثل : صفاته صلى الله عليه وسلم الخلقية والخلقية , وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة .

ثالثا : العقل وعلاقته بالنقل

أ . العقل لغة

عرفه ابن فارس : " العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عُظْمُه على حُبْسة في الشيء، أو ما يقارب الحُبْسة، من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل، قال الخليل: العقل نقيض الجهل. يقال: عقَل يعقِل عقلاً: إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله (...) ورجل عقول : إذا كان حسن الفهم وافر العقل " [1]

ب . العقل اصطلاحا

أكد كثير من الأصوليين أن من الصعب تحديد حقيقة (العقل) من الناحية الاصطلاحية ، ومنهم الجويني حين قال :

" فإن قيل : فما العقل عندكم ؟ قلنا : ليس الكلام فيه بالهين " [2]

وقال الراغب الأصفهاني : " العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ... وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول ... وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول، وأصل العقل الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعِقال، وعقلِ الدواءِ البطنَ، وعقلت المرأة شعرها ، وعقل لسانه : كفه ، ومنه قيل للحصن معقل " [3]

وأشار إلى ذلك الغزالي بقوله : " وكذلك إذا قيل : ما حد العقل ؟ فلا تطمع في أن تحده بحد واحد ، فإنه هوس ، لأن اسم العقل مشترك يطلق على عدة معان ، إذ يطلق على بعض العلوم الضرورية ، ويطلق على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية ، ويطلق على العلوم المستفادة من التجربة حتى إن من لم تحنكه التجارب بهذا الاعتبار لا يسمى عاقلا ، ويطلق على من له وقار وهيبة وسكينة في جلوسه وكلامه ، وهو عبارة عن الهدوء فيقال : فلان عاقل أي فيه هدوء ، وقد يطلق على من جمع العمل إلى العلم حتى إن المفسد وإن كان في

---

[1] - ابن فارس , أحمد , مقاييس اللغة : دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1 (1422= 2001م) , ص 647.

[2] - الجويني , عبد الملك بن عبد الله (ت 478 هـ) : البرهان في أصول الفقه ، تحقيق د. عبد العظيم الديب , دار الأنصار بالقاهرة ، ط 2 (1400هـ) ، ج 1 / 112 .

[3] - الراغب الأصفهاني , الحسين بن محمد (ت 502 هـ) : المفردات في غريب القرآن ، المكتبة التوفيقية، القاهرة ، (2003) , ص 345.

غاية من الكياسة يمنع عن تسميته عاقلا , فإذا اختلفت الاصطلاحات فيجب بالضرورة أن تختلف الحدود " [1]

وبتدبر أقوال العلماء نخلص إلى أن المعنى الاصطلاحي للعقل يتلخص في معان أربعة :

المعنى الأول :

الأداة الغريزية في الإنسان التي يدرك بها الأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى ، ويسميها بعضهم : (العقل الغريزي) .

المعنى الثاني :

ما توفره هذه الأداة الغريزية ، وتلك الطاقة الإدراكية من حصيلة معرفية ، وخبرة وفكرة ويسميها بعضهم : (العقل المكتسب) .

المعنى الثالث :

العلوم التي تلازم الإنسان العاقل ؛ فتقع في نفسه ابتداء ، ولا تنفك عن ذاته ؛ كالعلم بالممكنات ، والواجبات ، والممتنعات .

المعنى الرابع :

الأعمال التي يستوجبها العلم ؛ من إيمان بالله تعالى ، وتصديق بكتبه ، ورسله ، والتزام بأمره ونهيه ؛ كحبس النفس على الطاعات ، وإمساكها عن المعاصي . [2]

---

[1] - الغزالي, محمد بن محمد (ت 505 هـ) : المستصفى من علم الأصول ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ج23/1 .

[2] - جعفر شيخ إدريس : مفهوم العقل , مجلة البيان , العدد 158 ، 2001م ، ص61 .

ج – موقف السلف من علاقة العقل بالنقل

أتفق السلف على الاعتقاد أن نصوص الكتاب والسنة الصحيحة والصريحة في دلالتها ، لا يعارضها شيء من المعقولات الصريحة ، ذلك أن العقل شاهد بصحة الشريعة إجمالا وتفصيلا ، فأما الإجمال ، فقد شهد العقل بصحة النبوة وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فيلزم من ذلك تصديقه في كل ما يخبر به من الكتاب والحكمة .

وأما التفصيل ، فمسائل الشريعة ليس فيها ما يرده العقل ؛ بل كل ما أدركه العقل من مسائلها فهو يشهد له بالصحة ، وما قصر العقل عن إدراكه من مسائلها، فهذا لعظم الشريعة ورفعتها، ومع ذلك فليس في العقل ما يمنع وقوع مسائل يعجز العقل عن إدراكها ، فالشريعة قد تأتي بما يحير العقول لا بما تحيله العقول .

فإن وجد ما يوهم التعارض بين العقل والنقل، فإما أن يكون النقل غير صحيح أو يكون صحيحاً ليس فيه دلالة صحيحة على المدعى ، وإما أن يكون العقل فاسداً بفساد مقدماته – على افتراض طريقة المناطقة في تفسير عمل العقل وأنه يعالج المسائل على شكل قضايا مكونة من مقدمات ونتائج – مع التأكيد على أن وصف غير صحيح لا يحتمل وقوعه إلا في نصوص حديث الآحاد , لأن القرآن الكريم والأحاديث المتواترة مقطوع بصحتها .

وإذا ظهر تعارض بين الدليلين النقلي والعقلي، فلابد من أحد ثلاثة احتمالات :

الأول : أن يكون أحد الدليلين قطعياً والآخر ظنياً ، فيجب تقديم القطعي نقليا كان أم عقلياً ، وإن كانا ظنيين فالواجب تقديم الراجح ، عقلياً كان أو نقليا .

الثاني : أن يكون أحد الدليلين فاسدا، فالواجب تقديم الدليل الصحيح على الفاسد سواء أكان نقليا أم عقليا .

الثالث : أن يكون أحد الدليلين صريحاً والآخر ليس بذاك ، فهنا يجب تقديم الدلالة الصريحة على الدلالة الخفية ، لكن قد يخفى من وجوه الدلالات عند بعض الناس ما قد يكون بينا وواضحاً عند البعض الآخر، فلا تعارض في نفس الأمر عندئذ .

أما أن يكون الدليلان قطعيين - سندا ومتنا- ثم يتعارضان، فهذا لا يكون أبداً، لا بين نقليين ، ولا بين عقليين، ولا بين نقلي وعقلي .

ولإثبات صحة نسبة هذا المذهب إلى السلف رضوان الله عليهم , قال الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – : " أو كلما جاءنا رجل أجدل من الآخر تركنا ما نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم لجدله " [1] وهنا إشارة منه رحمه الله على وجوب تقديم الكتاب والسنة على آراء الرجال وأهوائهم .

وقال الأمام الدارمي [2] رحمه الله موضحا موقف السلف: " فوجدنا المعقول عند كل حزب ما هم عليه والمجهول عندهم ما خالفهم ، فوجدنا فرقكم معشر الجهمية في المعقول مختلفين ، كل فرقة منكم تدعي أن المعقول عندها ما تدعو إليه ، والمجهول ما خالفها، فحين رأينا المعقول اختلف منّا ومنكم ومن جميع أهل الأهواء ، ولم نقف له على حد بين في كل شيء ، رأينا أرشد الوجوه وأهداها أن نرد المعقولات كلها إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى المعقول عند أصحابه المستفيض بين أظهرهم، لأن الوحي كان ينزل بين أظهرهم ، فكانوا أعلم بتأويله منا ومنكم، وكانوا مؤتلفين في أصول الدين، لم يفترقوا فيه، ولم تظهر فيهم البدع والأهواء الحائدة عن الطريق " [3]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية [4] أيضا في معرض توضيحه لمذهب السلف : " المقصود هنا أن جعل القرآن إماما يؤتم به في أصول الدين وفروعه هو دين الإسلام. وهو طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين. فلم يكن هؤلاء يقبلون من أحد قط أن يعارض القرآن بمعقول أو رأي يقدمه على القرآن. ولكن إذا عرض للإنسان إشكال سأل حتى يتبين له الصواب ,

---

[1] - اللالكائي , هبة الله بن الحسن بن منصور (ت 418 هـ) : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة , ح : د سعد حمدان , دار طيبة , الرياض , ج 1 ص 144 .

[2] - الدارمي: عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي التميمي ، الإمام الحافظ الناقد ، طاف بالأقاليم في طلب الحديث، له مصنفات في الرد على المبتدعة، ت سنة 280هـ. انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي 319/13 ، طبقات الشافعية للسبكي 302/2 .

[3] - الدارمي , عثمان بن سعيد (ت 280 هـ) : الرد على الجهمية , ح : بدر البدر , دار ابن الأثير , الكويت , ط 2 , 1416 هـ , ص 124 .

[4] - هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني ، الإمام الفقيه، المجتهد، أفتى ودرّس وهو دون العشرين ، وله مئات التصانيف ، توفي سنة 728هـ.

انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 287/2 .

ولهذا صنف الإمام أحمد كتابا في " الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله " , ولهذا كان الأئمة الأربعة وغيرهم يرجعون في التوحيد والصفات إلى القرآن والرسول لا إلى رأي أحد ولا معقوله ولا قياسه , قال الأوزاعي : كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. وقال الإمام أحمد بن حنبل: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث. وقال الشافعي في خطبة " الرسالة " : الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه , وقال مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب " [1]

وقال ابن قيم الجوزية – رحمه الله - : " وقد اتفق الصحابة رضوان الله عليهم على القبول والتسليم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم , ولم ينقل عنهم التنازع في مسائل الاعتقاد (...) لم يسوموها تأويلا , ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا , بل تلقوها بالقبول والتسليم " [2]

والى ذلك أشار ابن أبي العز الحنفي في شرحه للطحاوية حين قال " فلا يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبدا " [3]

وكذلك ما صدر به السفاريني – رحمه الله – كتابه من تبيين لمنهجه في البحث في الكتاب , والذي أشار فيه إلى تقديم النقل على العقل , مع تفصيل لرأيه , فقال رحمه الله تعالى : " اعلم رحمك الله - تعالى - أن اصطلاحي في هذا الشرح الاستدلال بالكتاب وبقول النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، واقتفاء بالصحابة الكرام - رضوان الله تعالى عليهم، وما درج عليه الرعيل الأول من القرون المفضلة، مما تلقاه أئمة الدين بالقبول، وأثبتوه بالنقول ، وأصلوه في الأصول، وإن زعم متحذلق أنه يباين العقول فهو كلام باطل، ومذهب معلول. فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام ، تأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها ، فمن زعم أن العقل يحيل شيئا مما جاءت به الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فلا يخلو من أحد أمرين : إما عدم ثبوته عنهم، وإما عجز العقل عن إدراكه ، ولا يلزم من عجز العقول عن إدراك شيء من الأصول أو غيرها

---

[1] - ابن تيمية , أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ) : مجموع الفتاوى , جمع وتحقيق : عبد الرحمن القاسم , مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة المنورة – سنة 1995 م , ج 16 ص 471 و 472 .

[2] - ابن القيم , محمد بن أي بكر (ت 751 هـ) : إعلام الموقعين عن رب العالمين , ح : محمد محي الدين عبد الحميد , المكتبة العصرية , بيروت , 1407 ه , ج 1 ص 49 .

[3] - الحنفي , محمد بن علاء الدين بن أبي العز (ت 792 هـ) : شرح العقيدة الطحاوية , ح : شعيب الأرناؤوط , ج 1 ص 227 .

أن يكون مستحيلا ، كحديث النزول مع عدم الانتقال، وكون القرآن كلام الله وصفته مع عدم الانفصال ، ونظائر ذلك كثيرة جدا ، فمن لم يسلم للمنقول ، وقابله بالرد بالمعقول ، فهو ضال مخبول، فمذهبنا هو ما وافق صحيح المنقول ، وصريح المعقول الذي يجمع ما في الأقوال المختلفة من الصواب ، ويجتنب ما فيها من الخطأ والارتياب ، وهذا هو مذهب سلف الأمة وسائر الأئمة ، وهو الذي يدل عليه الكتاب والسنة ، وإجماع السلف، فإن الله - تعالى - بين في كتابه الحق بما ضربه فيه من الأمثال للخلق، ويذكر لك من البراهين ، ما يفيد لسليم الصدر عين اليقين، فإذا تأمل العاقل الفهيم نهاية ما يذكره أهل النظر من جميع طوائف المتكلمة والمتفلسفة ونحوهم، يجد الذي في القرآن أكمل منه وأوضح بيانا ، مع سلامته من المراء والجدال ، وزبالات أفهام الرجال ، ومن لم يكن علمه متلقى من الكتاب والسنة فهو غير نافع ولا منتفع به ، بل ضره أكثر من نفعه ، وعلامة هذا العلم - كما قال الحافظ ابن رجب - أن يكتسب صاحبه الزهو والفخر، والعجب والخيلاء، وطلب العلو والرفعة في الدنيا، والمنافسة فيها وطلب مباهاة العلماء ، ومماراة السفهاء ، وصرف وجوه الناس إليه " [1]

[1] - السفاريني ، شمس الدين محمد بن أحمد (ت 1188 هـ) : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية , مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق - ط 2 , 1982 م , ج 1 ص 27 و 28 .

د - رأي المتكلمين في علاقة العقل بالنقل

المتكلمون هم علماء التوحيد الذي آثروا الخوض في مسائل الاعتقاد بحثا وتمحيصا , وزل بعضهم فلم يميز بين ما يجوز البحث فيه من عدمه , وأدى بهم ذلك إلى الزلل ومجانبة الصواب في بعض المسائل التي بحثوها , ومن ذلك تأصيل بعضهم لمبدأ تقديم العقل على النقل عند التعارض , وادعاؤهم أن العقل هو الأصل , وأن عليه المعول في تصديق وفهم المنقولات , وسأسوق هنا النقولات التي تثبت نسبة هذا الرأي إلى بعضهم , وسأختار مقولات أعلام مدرستي الاعتزال والأشاعرة كنموذج لهذا الفكر .

نقل القاضي عبد الجبار المعتزلي [1] عن واصل بن عطاء [2] من تقريره أن النقل ولو وصل إلى درجة التواتر والصحة غير مقبول ما لم يوافق العقل , وتابعه أبو الهذيل العلاف [3] في اعتبار الرواية ريبة والحجة في المقاييس العقلية [4] ولا يخفى على قارئ لكشاف الزمخشري تأثره بهذه اللوثة , ومثال ذلك إعمال عقله في آيات الصفات تأويلا وتحريفا , وتقريره لمسائل مذهبه البدعي بطريقة لي أعناق النصوص تأويلا وتحريفا .

وبعد ذكر آراء سلفه , قال القاضي عبد الجبار في كتابه شرح الأصول الخمسة ليقرر أن العقل هو الأصل وأن النقل تابع له , فهو لذلك لا يرضى تقديم العقل على النقل لأنه من باب تقديم الفرع على الأصل [5] .

أما الأشاعرة فقد كثرت النقول عنهم في هذا الباب إلا أن الرازي [1] وضع لهم قانونا لخص فيه ما قيل في هذا الباب , وقانونه هذا كان محور كتاب (درء تعارض العقل مع النقل) الذي صنفه ابن تيمية ردا عليهم , والقانون هو :

---

[1] - أبو الحسن القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل الهمذاني الأسد , انتهت إليه رئاسة المعتزلة في عصره ، ألف في أصولهم : (المغني) وشرح الأصول الخمسة وكانت وفاته سنة 415 وقيل 416 وقد جاوز التسعين , انظر ترجمته في: طبقات الشافعية للسبكي 219/3، لسان الميزان لابن حجر 3/ 386 .

[2] - واصل بن عطاء الغزال، شيخ المعتزلة، وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، ولد بالمدينة سنة 80هـ وتوفي سنة إحدى وثلاثين ومائة ، انظر ترجمته في : ميزان الاعتدال للذهبي 4/ 329، ولسان الميزان لابن حجر 214/6.

[3] - محمد بن الهذيل العبدي ، كان يلقب بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين، وكان فصيحا جدلاً كان شيخ البصريين في الاعتزال ومن أكبر علمائهم (ت 235هـ) ,

انظر: وفيات الأعيان4/ 265.

[4] - القاضي عبد الجبار المعتزلي و أبو القاسم البلخي والحاكم الجثمي : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة , ح : فؤاد سيد , الدار التونسية , 1393 ه , ص 234 و ص 259 بتصرف .

[5] - انظر : القاضي عبد الجبار المعتزلي : شرح الأصول الخمسة , ح : عبد الكريم عثمان , مكتبة وهبة , مصر , ط2 , 1408 ه , ص 88 .

" اعلم أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك , فهناك لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة ؛ إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل فيلزم تصدِيق النقيضين وهو محال , وإما أن يبطل فيلزم تكذيب النقيضين وهو محال , وإما أن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية وذلك باطل ؛ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلِية إثبات الصانع وصفاته وكيفِية دلالة المعجزة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وظهور المعجزات على محمد صلى الله عليه وسلم , ولو جوزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهما غير مقبول القول ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبول القول في هذه الأصول , وإذا لم نثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة , فثبت أن القدح لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معا وانه باطل , ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية إما أن يقال إنها غير صحيحة أو يقال إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها , ثم إن جوزنا التأويل واشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل وإن لم يجز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات وبالله التوفيق " [2]

وهنا مجازفة منه رحمه الله , وهو قوله أن الدليل العقلي إذا كان قطعياً فهو مسوغ للقطع بعدم صحة النقل , وتعبيره عن الانشغال بالتأويل أنه على سبيل التبرع فيه ما فيه كذلك , لأن حفظ مقام النص وبيان أحكامه من الواجبات .

وعلى خطى الرازي سار الإيجي [3] في المواقف حيث يقول :

" بعد هذين الأمرين أعني العلم بالوضع والعلم بالإرادة لا بد من العلم بعدم المعارض العقلي الدال على نقيض ما دل عليه الدليل النقلي إذ لو وجد ذلك المعارض لقدم على الدليل النقلي قطعا بأن يؤول الدليل النقلي عن معناه إلى معنى آخر " [4]

---

[1] - الرازي: محمد بن عمر بن الحسين البكري الطبري الرازي، أبو عبد الله، الملقب ابن خطيب الري، كثير الرحلة، اشتهر بالذكاء، كتبه عرية عن الآثار ومنها: المطالب العالية، أساس التقديس، المحصول وغيرها، توفي سنة 606هـ. انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان 381/3، طبقات الشافعية للسبكي 81/8 .

[2] - الرازي , محمد بن عمر (ت 606 هـ) : أساس التقديس في علم الكلام , مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت , ط 1 , 1995 م , ج 1 ص 130 .

[3] - القاضي عضد الدين، عبد الرحمن بن أحمد الإيجي : عالم بالأصول والمعاني والعربية من أهل إيج بفارس، جرت له محنة مع صاحب كرمان، فحسبه بالقلعة, فمات مسجونًا سنة 756 هـ , له: "المواقف"، "والعقائد العضدية"، وغيرها , الأعلام للزركلي : 3/295 .

[4] - الإيجي , عضد الدين : المواقف , ح : عبد الرحمن عميرة , دار الجيل , بيروت , ج 1 ص 207 .

وقال التفتازاني [1] في المقاصد : " وبالجملة فلا سبيل إلى الجزم بوجود الشرائط وعدم الموانع بل غايته الظن وما يبتني على الظن لا يفيد إلا الظن , ومن جملة مالا بد منه ولا سبيل إلى الجزم به انتفاء المعارض العقلي ؛ إذ مع وجوده يجب تأويل النقل وصرفه عن ظاهره لأنه لا يجوز تصديقهما لامتناع اعتقاد حقية النقيضين , ولا تكذيبهما لامتناع اعتقاد بطلان النقيضين , ولا تصديق النقل وتكذيب العقل لأنه أصل النقل لاحتياجه إليه , وانتهائه بالآخرة إليه لما سبق من أنه لا بد من معرفة صدق النقل بدليل عقلي , وفي تكذيب الأصل لتصديق الفرع تكذيب الأصل والفرع جمِيعا وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل قطعا واقتصر في المتن على هذا لكونه وافيا بتمام المقصود وذلك لأنه لما امتنع تصديق النقل لاستلزامه تكذيب العقل الذي هو الأصل ثبت أنه لا يفيد العلم إذ لا معنى لعدم تصديقه سوى هذا ولا حاجة إلى باقي المقدمات مع ما في الحصر من المناقشة إذ لا يلزم تصديقهما أو تكذيبهما أو تصديق أحدهما وتكذيب الآخر لجواز أن يحكم بتساقطهما وكونهما في حكم العدم من غير أن يعتقد معهما حقية شيء أو بطلانه ولو جعل التكذيب مساويا لعدم التصديق لم يلزم من تكذيب العقل والنقل اعتقاد ارتفاع النقيضين وبطلانهما لأن معنى عدم تصديق الدليل عدم اعتقاد صحته واستلزامه لحقية النتيجة وهذا لا يستلزم بطلانها أو اعتقاد بطلانها وارتفاعها " [2]

---

[1] - مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ، سعد الدين : من أئمة العربية والبيان والمنطق، ولد بتفتازان سنة 712 هـ , وأقام بسرخس, وهما في بلاد خراسان, أبعده تيمورلنك إلى سمرقند, فتوفي فيها, ودفن في سرخس سنة 793 هـ , له : تهذيب المنطق والمطول والمختصر و شرح العقائد النسفية وغيرها . انظر الأعلام للزركلي : 7 / 219 .

[2] - التفتازاني , سعد الدين مسعود : شرح المقاصد في علم الكلام , دار المعارف النعمانية – باكستان - , ط 1 , 1981 م , ج 1 ص 54 و 55 .

المطلب الثاني : الغلو

أولا : تعريف الغلو

أ . الغلو لغة

قال ابن فارس : " الغين واللام والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر " [1] , وقال ابن منظور في اللسان : " أصل الغلاء : الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء , يقال : غاليت صداق المرأة أي أغليته , ومنه قول عمر رضي الله عنه : " ألا لا تغالوا في صدقات النساء " [2] أي لا تبالغوا في كثرة الصداق , وأصل الغَلاء الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء , وغلا في الدين والأمر يغلو غلوا جاوز حده " [3]

ب . الغلو اصطلاحا

عرفه الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى : " لا تغلوا في دينكم " [4] بقوله : " لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه ولا تقولوا في عيسى غير الحق فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق لأن الله لم يتخذ ولدا فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابنا (...) وأصل الغلو في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده يقال منه في الدين: قد غلا فهو يغلو غلوا وغلا بالجارية عظمها ولحمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها يغلو لها غلوا وغلاء " [5]

قال ابن تيمية : " الغلو هو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك " [6] ، وقال المناوي : " الغلو في الدين أي التشديد فيه ومجاوزة الحد والبحث عن غوامض الأشياء والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها " [7]

---

[1] - ابن فارس : مقاييس اللغة , ج 1 ص 697 .

[2] -الترمذي , كتاب النكاح , باب ما جاء في مهور النساء , برقم : 1114 وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم : 889 .

[3] - انظر : ابن منظور : لسان العرب , ج 15 ص 131 .

[4] - النساء 171 .

[5] - انظر الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ج 9 ص 416 .

6 - انظر ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم , اقتضاء الصراط المستقيم , السنة المحمدية , القاهرة , ط 2 , 1369هـ ، ج 1 ص 106.

7 - انظر المناوي , عبد الرؤوف : فيض القدير شرح الجامع الصغير , التجارية الكبرى , مصر , ط1 , 1356هـ , ج 3 ص 126

إذن فالغلو هو مجاوزة الحد , ولأن حديثنا عن الجانب الشرعي , فالغلو هنا هو تجاوز الحدود التي حدها لنا الشرع إلى ما وراء تلك الحدود , ومن صوره تكلف البحث فيما لم يكلفنا الله تعالى , وتجاوز الحد في تفسير ما لم يحدد النص كنهه أو حقيقته , ومنها كذلك ؛ تحميل النصوص ما لا تحتمل من المعاني , بحيث يترتب على ذلك أحكام لا تصح نسبتها إلى الشرع .

ج . بداية ظهور الغلو

ليس المراد هنا أن نقف على السنة التي ظهر فيها الغلو , أو أول الحوادث التي اقترنت بظهوره , إنما أن نشير إلى أن الغلو ظاهرة قديمة قدم ظهور الأديان والشرائع , فهي نزعة إنسانية يغذيها الجهل , وضعف الالتزام بضوابط الشرع الحكيم .

ووردت إشارات إلى ظهور الغلو في عصر النبي صلى الله عليه وسلم , ومن ذلك ما رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : " بينا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم جاء ذو الخويصرة التميمي ، فقال : اعدل يا رسول الله ! فقال : ويحك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ائذن لي فأضرب عنقه ، قال : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في نضيِّه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم ، آيتهم رجل إحدى يديه - أو قال : ثدييه - مثل ثدي المرأة - أو قال : مثل البضعة – تدردر ، يخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد رضي الله عنه : أشهد أني سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن علياً رضي الله عنه قتلهم وأنا معه ، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم " [1]

وفي إشارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن الصحابة يحقرون ما يأتونه من عبادة إلى جانب عبادة أصحاب ذي الخويصرة , إلى جانب المعتقد الذي يحملونه , وهذه صورة من أقبح وأرذل صور الغلو , لأن أصحابه – على سوء صنيعهم – يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

---

[1] - سبق تخريجه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " وهؤلاء خرجوا على عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقتل الذين قاتلوه جميعهم مع كثرة صومهم وصلاتهم وقراءتهم ، فأخرجوا عن السنة والجماعة وهم قوم لهم عبادة وورع وزهد لكن بغير علم " [1]

ومن صور الغلو كذلك الغلو في الأشخاص , وذلك بأن يرفعوا إلى فوق ما لهم من مقام بشري , أو برد كلام الله ورسوله بكلامهم , وهذا باب خطير قد يفضي بصاحبه إلى الكفر – عياذا بالله - , وقد ضبط الشرع هذا الباب بأن جعل اتباع الشرع هو ميزان التولي والاتباع .

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : " صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ؛ أما ود كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عبدت " [2]

د . نماذج من غلو الفرق

إن الباحث في صور الغلو عند الفرق المنتسبة إلى الإسلام , يجد أن الغلو الشيعي الإثنى عشري يأتي على رأسها وفي مقدمتها , وترجع جذور هذا الغلو إلى عبد الله بن سبأ الذي يعتبر أول من ابتدع الغلو في عليّ رضي الله عنه والطعن في أبي بكر وعمر , وأصل الرفض : من المنافقين والزنادقة . فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق , وأظهر الغلو في عليّ بدعوى الإمامة والنص ، وادعى العصمة له " [3]

ويقول الشهرستاني " الشيعة في هذه الشريعة وقعوا في غلو وتقصير، أما الغلو فتشبيه بعض أئمتهم بالإله تعالى وتقدس، وأما التقصير فتشبيه الإله بواحد من الخلق " [4]

1 - ابن تيمية : مجموع الفتاوى , ج 28 ص 580 .

2 - رواه البخاري في كتاب التفسير , باب : ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً , برقم 4636 .

[3]- انظر : ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 4 ص 435 .

[4]- الشهرستاني , محمد بن عبد الكريم (ت : 548 هـ) : الملل والنحل , مؤسسة الحلبي , (د . ط) , (د . س) , ج 1 ص 93 .

ومن الأمثلة على غلو الشيعة الإثنى عشرية , ما رواه عن سيف التمار أنه قال : " كنا مع أبي عبد الله جماعة من الشيعة في الحجر , فقال : علينا عين ؟ فالتفتنا يمنة ويسرة فلم نر أحداً فقلنا : ليس علينا عين. فقال: ورب الكعبة ورب البنية - ثلاث مرات - لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما ، لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان , ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة , وقد ورثناه من رسول الله صلى الله عليه وآله وراثة " [1]

هنا الإمام – بزعمهم – أنزل نفسه منزلة فوق منزلة النبيين , وهو يعلم ما كان وما يكون وما سيكون إلى يوم القيامة .

ويروي كذلك عن أبي عبد الله أنه قال : إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض وأعلم ما في الجنة وأعلم ما في النار ، وأعلم ما كان وما يكون، قال : ثم مكث هنيهة ، فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه فقال: علمت ذلك من كتاب الله عز وجل ، إن الله عز وجل يقول فيه تبيان كل شئ " [2]

أما المجلسي فقد بوب في بحاره باباً سماه " باب : أنهم عليهم السلام لا يغيب عنهم علم السماء والأرض والجنة والنار ، وأنه عرض عليهم ملكوت السماوات والأرض ويعلمون علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة " [3] وبابا آخر بعنوان " باب : في تفضيلهم عليهم السلام على الأنبياء وعلى جميع الخلق ، وأخذ ميثاقهم عنهم وعن الملائكة وعن سائر الخلق ، وأن أولي العزم إنما صاروا أولي عزم بحبهم صلوات الله عليهم أجمعين " [4]

وهنا يظهر غلوهم في أئمتهم في أجلى صوره وأوضحها , فهم يعلمون الغيب , ومفضلون على الأنبياء وجميع الخلق .

---

[1] - الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب : الكافي , دار الكتب الإسلامية ، طهران , ط 3 , 1388 هـ , ج 1 ص 260 – 261 .

[2] - المرجع السابق : ج 1 ص 261 .

[3] - المجلسي، محمد باقر , بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ط 2 , 1983 م ج 26 ص 106.

[4] - المرجع السابق : ج 26 ص 267 .

ويقول الخميني في خطاب له : " لم تكن الزهراء امرأة عادية، لقد كانت امرأة ملكوتية ، كانت إنسانا بتمام معنى الكلمة (...) لم تكن امرأة عادية ، بل هي كائن ملكوتي تجلى في الوجود على صورة إنسان , بل كائنٌ إلهي جبروتي ظهر على هيئة امرأة " [1]

وهنا نجد أن الغلو عندهم تعدى الأئمة إلى بقية شخصيات آل البيت , ومنهم فاطمة بنت محمد رضي الله عنها .

وتجاوزوا في غلوهم إلى تعظيم القبور والأموات , ومما جاء في ذلك ما رواه المجلسي عن زيد الشحام قال : " قلت لأبي عبد الله : ما لمن زار الحسين عليه السلام ؟ قال: كمن زار الله في عرشه . قال : قلت : فما لمن زار أحدًا منكم ؟ قال : كمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله " [2]

وفي روايته عن بشير الدهان يختلقون حديثا , فيقول : " قال أبو عبد الله : أيما مؤمن زار الحسين بن علي عليه السلام عارفاً بحقه في غير يوم عيد , كتبت له عشرون حجة وعشرون عمرة مبرورات متقبلات , وعشرون غزوة مع نبي مرسل وإمام عادل "[3]

ولم يقتصر هذا الغلو على الشيعة الإمامية , فقد سرى إلى فرق أخرى , فقد " وقع في طوائف من ضلال المتعبدة والمتصوفة، حتى خالط كثيرا منهم من مذاهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى أو مثله أو دونه " [4]

وأشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته فقال : " وكان سلفهم- أي متأخري الصوفية كابن العربي وابن الفارض وغيرهم - مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً

---

[1] - أنظر مكانة المرأة في فكر الإمام الخميني ، ص 23 ، من منشورات السفارة الإيرانية بدمشق , عن خطبة للخميني ألقاها في 20 / جمادى الآخرة / 1399 هـ .

[2] - المجلسي : بحار الأنوار : ج 97 ص 119 .

[3] - المرجع السابق : ج 98 ص 34 .

[4] - البعلي , محمد بن علي (ت : 778 هـ) : المنهج القويم في اختصار اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية , ت : علي العمران , دار عالم الفوائد مكة المكرمة , ط 1 , 1422 هـ , ص 25 .

بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم " [1]

وفي كلامه إشارة إلى سريان الغلو من فرقة إلى أخرى , ولم تكد تسلم فرقة من فرق المخالفين لأهل السنة من الغلو , ذلك أن الغلو قرين الجهل والتعصب , وهما السمتان اللتان ميزتا فرق المخالفين .

[1] - أنظر ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت : 808 هـ) , المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، 1981 م ، ج1، ص 611.

المطلب الثالث : الموقف من الأحداث التاريخية

لقد كان لاختلاف الموقف من بعض الأحداث التي جرت في تاريخ الإسلام دور في تفرق الأمة وتشتتها , وقد افتتح عبد القاهر البغدادي كتابه في الفرق بلمحة عن تاريخية , فقال رحمه الله :

" كان المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه , غير من أظهر وفاقا وأضمر نفاقا , وأول خلاف وقع منهم اختلافهم في موت النبي عليه السلام ؛ فزعم قوم منهم أنه لم يمت وإنما أراد الله تعالى رفعه إليه كما رفع عيسى بن مريم إليه , وزال هذا الخلاف وأقر الجميع بموته حين تلا عليهم أبو بكر الصديق قول الله لرسوله عليه السلام : إنك ميت وإنهم ميتون . وقال لهم : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات , ومن كان يعبد رب محمد فانه حي لا يموت (...) ثم اختلفوا بعد ذلك في الإمامة ؛ وأذعنت الأنصار إلى البيعة لسعد بن عبادة الخزرجي , وقالت قريش : إن الإمامة لا تكون إلا في قريش , ثم أذعنت الأنصار لقريش لما روي لهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : الأئمة من قريش , وهذا الخلاف باق إلى اليوم ؛ لان ضرارا أو الخوارج قالوا : بجواز الإمامة في غير قريش . ثم اختلفوا بعد ذلك في شأن فدك وفى توريث التركات عن الأنبياء عليهم السلام ثم نفذ في ذلك قضاء أبي بكر بروايته عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الأنبياء لا يورثون .

(...) ثم اختلفوا بعد ذلك في أمر عثمان لأشياء نقموها منه حتى أقدم لأجلها ظالموه على قتله ثم اختلفوا بعد قتله في قاتليه وخاذليه اختلافا باقيا إلى يومنا هذا , ثم اختلفوا بعد ذلك في شأن علي وأصحاب الجمل , وفي شأن معاوية وأهل صفين , وفي حكم الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص اختلافا باقيا إلى اليوم " [1]

أشار رحمه الله في هذا النص إلى أهم الحوادث التاريخية التي تفرق المسلمون بسببها , وذلك لاختلاف موقفهم منها , وسآتي على ذكر أمثلة لهذه الحوادث التاريخية موثقة من كتب التاريخ .

---

[1] - البغدادي , عبد القاهر بن طاهر (429 هـ) : الفرق بين الفرق , دار الآفاق الجديدة , بيروت , ط 2 , 1977 م , ص 12 – 14 .

أولا : بيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة

فهناك من زعم أن خلافا شجر بين المسلمين حول بيعة أبي بكر الصديق , تحديدا آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم , فزعم اليعقوبي أنهم " لما بلغهم خبر بيعة الناس لأبي بكر الصديق غضبوا ،و قال العباس : فعلوها و رب الكعبة ؛ و قال بعضهم : نحن أولى بمحمد ، و قال آخر : بنو هاشم أولى بالخلافة ، وأن قريشا أخذتها بالتمويه " [1]

وخالفه ابن كثير رحمه الله , الذي أكد أن عليا رضي الله عنه " لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه كما سنذكره وخرج معه إلى ذي القصة لما خرج الصديق شاهرا سيفه يريد قتال أهل الردة كما سنبينه قريبا، ولكن لما حصل من فاطمة رضي الله عنها عتب على الصديق بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعلم بما أخبرها به الصديق رضي اللَّهُ عنه " [2]

وقد شهد أمر الحادثة مساجلات بين الفريقين , ليس هنا محل بسطها , فالمراد من المطلب هنا الإشارة إلى الحوادث التي كان من شأنها أن تفرق المسلمون حولها .

ثانيا : الموقف من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

فقد زعم كذابون في عهده رضي الله عنه أن أتى بمظالم ومناكير , عدوا منها :

" 1 - ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه

2 - ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه

3 - وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف

4 - وحمى الحمى

5 - وأجلى أبا ذر إلى الربذة " [3]

---

[1] - اليعقوبي : أحمد بن إسحق (ت 284 هـ) : تاريخ اليعقوبي ، دار صادر , بيروت ، ج2 ص 124 .

[2] - ابن كثير , اسماعيل بن عمر (ت 774 هـ) : البداية والنهاية , ت : علي شيري , دار إحياء التراث العربي , ط 1 , 1408 هـ , ج 5 ص 270 .

[3] - ابن العربي , محمد بن عبد الله (ت 543 هـ) : العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم , علق عليه : محب الدين الخطيب , وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد , السعودية , ط 1 , 1419 هـ , ص 61 .

وقد اجتهد القاضي صاحب " العواصم من القواصم " رحمه الله في ذب هذه التهم عن ذي النورين , الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه . [1]

ثالثا : مقتل عثمان رضي الله عنه

وقد تنامت هذه الخلافات , ونشأت على إثرها فتنة عظيمة انتهت بمقتل عثمان رضي الله عنه , ويحدث ابن العربي رحمه الله عما جرى بعدها يقول " فلما قضى الله من أمره ما قضى ، ومضى في قدره ما مضى ، علم أن الحق لا يترك الناس سدى ، وأن الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه . ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتقى ودينًا ، فانعقدت له البيعة . ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلي لجرى على من بها من الأوباش ما لا يرقع خرقه . ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضًا عليه ، فانقاد إليه " [2]

وقد اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان رضي الله عنه حتى أفضى هذا الخلاف بهم إلى الاقتتال فيما عرف بموقعة الجمل و موقعة صفّين ، ففريق رأى ضرورة تعجيل القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه , حتى قبل بيعة علي رضي الله عنه , الذي رأى ضرورة تثبيت أركان الدولة و وترتيب شأنها الداخلي , ولو على حساب تأخير القصاص . [3]

وانقسم الصحابة إزاء الاقتتال إلى ثلاثة طوائف ؛ طائفة رأت القتال مع أهل العراق – علي وأنصاره - , وأخرى رأت القتال مع أهل الشام – معاوية وأنصاره - , وثالثة اعتزلت الفتنة , وآثرت تجنبها قدر استطاعتها , وهؤلاء كانوا الأكثر عددا . [4]

وعلى إثر انقسام موقف الصحابة هذا , والذي كان في دائرة الاجتهاد والتأول , ظهرت فرق تبنت مواقف من هذا الانقسام , جعل بعضها يخرج عن دائرة السنة , ومنهم الشيعة الإمامية الذين غلوا في مشايعة علي وآل البيت , ومنهم الخوارج الذين غلوا في تكفير المخالف , ولا زالت الأمة حتى يومنا تعاني وتتجرع ويلات ظهور أمثال هذه الفرق المنحرفة .

---

[1] - المصدر السابق : ص 63 وما بعدها .

[2] - المصدر السابق : ص 142 .

[3] - للمزيد انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ج 7 ص : 228، 229 ، 230 و ابن تيمية : منهاج السنة النبوية : ج 3 ص : 1 - 2 .

[4] - انظر : امحزون , محمد : تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة , دار السلام , القاهرة , ط 2 , 1428 هـ , ص 449 - 492 .

وعن عظيم أثر هذه الفتنة , تحدث سعيد بن المسيب رحمه الله فيما رواه البخاري عنه قال : " وقعت الفتنة الأولى - يعني مقتل عثمان - فلم تبق من أصحاب بدر أحدا ، ثم وقعت الفتنة الثانية ، - يعني الحرة - فلم تبق من أصحاب الحديبية أحدا ، ثم وقعت الثالثة ، فلم ترتفع وللناس طباخ " [1]
فهو هنا يراها أول الفتن , وأن من شؤمها أنها لم تبق أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدرا .

[1] - البخاري , كتاب المغازي , يقرأ في المغرب بالطور وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي , برقم : 3800 , وقال مصطفى البغا شارحا : (الحرة) موضع الوقعة التي حصلت خارج المدينة قاتل فيها عسكر يزيد بن معاوية - رضي الله عن معاوية - أهل المدينة سنة ثلاث وستين للهجرة قتل فيها سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم وعلى يزيد من ربه ما يستحق من الجزاء والحرة أرض ذات حجارة سوداء. (الثالثة) قيل لما خرج في المدينة أبو حمزة الخارجي وكان ذلك في خلافة مروان بن محمد سنة ثلاثين ومائة ألف للهجرة. (طباخ) قوة وشدة .

المبحث الثاني : الأسباب الخارجية للافتراق

المطلب الأول : تأثير أهل الكتاب

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حسم باب التأثر بأهل الكتاب [1] , وتجلى ذلك في نهيه صلى الله عليه وسلم عن إعمال النظر في كتبهم , لأن بعض علماء اليهود بالمدينة كانوا يقرؤون على المسلمين بعض نصوص التوراة ، ويترجمونها لهم إلى العربية ، ولعل ذلك أسلوب من أساليب التبشير بالدين اليهودي فلما سمع بذلك النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يقفوا من ذلك موقف الحيطة والحذر، فلا يصدقونهم فيه ويأخذونه منهم قضية مسلمة , لأن التوراة قد أدخل عليها الكثير مما ليس فيها ، ولا يكذبونهم فيه لاحتمال أن يكون من بقية الوحي السماوي الذي أنزل على موسى " [2]

" وقد نقل بعضهم الإجماع على أنه لا يجوز الاشتغال بالتوراة والإنجيل ولا كتابتهما ولا نظرهما وعند أحمد والبزار ، واللفظ له من حديث جابر قال: نسخ عمر كتابًا من التوراة بالعربية فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ ووجه النبي صلى الله عليه وسلم يتغير , فقال له رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطاب ؛ ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا , وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل , والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي " [3]

---

[1] - في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية , ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم , وقولوا (آمنا بالله وما أنزل ..) الآية (البقرة 136) " (البخاري 4485) .

[2] - حمزة محمد قاسم , منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري , مكتبة دار البيان ، دمشق , 1410 هـ , ج 5 ص 35 .

[3] - القسطلاني , أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت 923 هـ) : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري , المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر , ط 7 , 1323 هـ , ج 10 ص 470 .

إلا أن بعضهم تنكب هذا الصراط القويم , فعمد إلى الاطلاع على ما عند أهل الكتاب , وأخذ منهم ما أخذ من أفكار وعقائد , طمعا في إضلال المسلمين وحرفهم عن الحق , وقد تبعهم بعض المسلمين بحسن نية , من باب حب الإطلاع , والتزود والاطلاع على الثقافات الأخرى .

وسآتي على ذكر نماذج لتأثر المسلمين بما عند أهل الكتاب - اليهود والنصارى - , وما نجم عنه من تفرق للمسلمين .

أولا : التأثر باليهود

من أوضح الأمثلة على هذا الباب فرقة الشيعة الاثني عشرية , والتي كان منشؤها على يد اليهودي عبد الله بن سبأ الذي أظهر الإسلام , قال الطبري رحمه الله " كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم , فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام , فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : " إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد " ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . قال : فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي , وكان علي وصي محمد ، ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء , ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمر الأمة ، ثم قال لهم بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم , فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس " [1]

وقد ظهر أثر يهوديته جليا في مذهب الرفض , وإلى ذلك أشار الشعبي رحمه الله فقال :

" لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم , وقد حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار، ونفاهم إلى البلدان، منهم عبد الله بن سبأ نفاه إلى ساباط , وعبد الله بن سباب نفاه إلى الجازر ، وأبو الكروس ، وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود . قالت اليهود : لا يكون الملك إلا في آل داود ، وقالت الرافضة : لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب . وقالت اليهود : لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح

[1] - الطبري , محمد بن جرير (ت : 310 هـ) : تاريخ الأمم والملوك , دار الكتب العلمية , بيروت , ط 1 , ج 2 , ص 647 .

المنتظر وينادي مناد من السماء ، وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل سبب من السماء . واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة . واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً , وكذا الرافضة . واليهود لا ترى على النساء عدة ، وكذلك الرافضة . واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة . واليهود حرفوا التوراة ، وكذلك الرافضة حرفت القرآن . واليهود تبغض جبريل عليه السلام وتقول : هو عدونا من الملائكة , وكذلك الرافضة تقول : غلط جبريل في الوحي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب . واليهود لا تأكل لحم الجزور، وكذلك الرافضة " [1]

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن أصل معتقد هذه الفرقة مدسوس من اليهود , يقول الشيخ إحسان إلهي ظهير رحمه الله : " ولقد ذكرنا فيما سبق أن اليهودية دست عقائد جديدة في الإسلام بوساطة ابنها البار بها ، عبد الله بن سبأ ، لبناء مذهب جديد وإنشاء نحلة جديدة باسم الإسلام ولا يكون للإسلام علاقة بها ، فمن تلك العقائد التي جعلتها أصل الأصول هي عقيدة الولاية والوصاية ، ولقد أوردنا النصوص عن الشيعة بأن أول من نادى بها هو ابن السوداء ، هذا اليهودي الماكر، مع إنكار الشيعة علاقتها معه ومع اليهودية ، فإنهم لا يبنون عقائدهم إلا على أقواله وآرائه " [2]

وقد اجتهد العلماء والباحثون في رصد وتتبع أوجه الشبه بين عقائد الرافضة واليهود , ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في " رسالة في الرد على الرافضة " ، و الدكتور محمد عبد المنعم البري عميد مركز الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر في كتابه : " الجذور اليهوديّة للشيعة" ، و عبد الله الجميلي في كتابه : " بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود " وأفرد الدكتور عبد الله القصيمي فصلا في كتابه " الصراع بين الإسلام والوثنية " , وأشار إلى ذلك أيضا الشيخ عبد الوهاب خليل الرحمن في مقدمته لتحقيق كتاب "رسالة في الرد على الرافضة" لأبي حامد المقدسي .

---

[1] - ابن عبد ربه , شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 328 هـ) , العقد الفريد , دار الكتب العلمية , بيروت , ط1 , 1404 هـ , ج 2 ص 249 .

[2] - انظر : ظهير , إحسان إلهي (ت 1407 هـ) ، الشيعة والسنة ، دار الأنصار، القاهرة ، 1979م ، ص39 .

وقد انعكس ذلك على واقعه المعاصر أيضا , فتكالبهم على أمة الإسلام التي يدعون الانتساب إليها زورا , وإعمالهم السيف فيها , وإدعاؤهم أنهم ركن فيما أسموه " محور الممانعة " تجاه العدو الصهيوني , وما هم إلى أداة في يد هذا المشروع السرطاني الخبيث , الذي يهدف إلى القضاء على الأمة , وما صنيعه بأهل السنة في العراق والشام اليوم إلا نزر يسير مما تكنه قلوبهم من حقد تجاه أهل السنة والجماعة .

ومن أبرز العقائد التي أخذها الشيعة عن اليهود عقيدة التشبيه , والتي لم تقتصر عليهم , بل لقد " تتابعت سلسلة السبئية والمشبهة في فرق المنصورية والخطابية و المغيرية والبيانية , وظهر التشبيه بأقبح صوره في مقالات هشام بن الحكم و هشام بن سالم الجواليقي , فكان التشبيه جزءا من عقائد الشيعة والسبئية " [1]

كما كان للمترجمين اليهود دور في تحريف الكتب المترجمة , لتوافق أطماعهم بشق صف المسلمين , وزرع بذور الفتنة والشقاق بينهم . [2]

وثمة إشارات أخرى لضلوع اليهود في إحداث الفرقة بين المسلمين , فبشر المريسي [3] الذي كان أحد رؤوس الفتن , كان أبوه " يهوديا قصارا صباغا في سويقة نصر " [4]

أخرج الخطيب البغدادي عن أبي مسلم صالح بن أحمد العجلى قال " حدثني أبي قال : رأيت بشرا المريسي- عليه لعنة الله- مرة واحدة , شيخا قصيرا دميم المنظر ، وسخ الثياب ، وافر الشعر ، أشبه شيء باليهود , وكان أبوه يهوديا صباغا بالكوفة في سوق المراضع , ثم قال : لا يرحمه الله ، ولقد كان فاسقا " [5]

---

[1] - المعايطة , عطا الله : الفرق الإسلامية وموقف أهل السنة والجماعة منها , دار الفاروق , ط 1 , 1431 هـ , ص 82 – 83 .

[2] - انظر : المصدر السابق ص 84 .

[3] - أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي المريسي كان من كبار الفقهاء , ونظر في الكلام فغلب عليه ، وانسلخ من الورع والتقوى , وجرد القول بخلق القرآن ، ودعا إليه حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم فمقته أهل العلم وكفره عدة ، ولم يدرك جهم بن صفوان بل تلقف مقالاته من أتباعه , مات : في آخر سنة ثماني عشرة ومائتين وقد قارب الثمانين , انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي : ج 8 ص 336 .

[4]- الذهبي , محمد بن أحمد (ت 748 هـ) : سير أعلام النبلاء , دار الحديث , القاهرة , 1427 هـ , ج 8 ص 336 .

[5] - الخطيب البغدادي , أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ) : تاريخ بغداد , دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا , دار الكتب العلمية , بيروت , ط 1 , 1417 هـ , ج 7 ص 66 .

ومن رؤوس المبتدعة أيضا أحمد بن أبي دؤاد , الذي قال ابن الأثير في ترجمته : " كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة ، وأخذ ذلك عن بشر المريسي ، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان ، وأخذه الجهم من الجعد بن درهم ، وأخذه الجعد من أبان بن سمعان ، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد الأعصم وختنه ، وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت ، وكان زنديقا فأفشى الزندقة " [1]

فاليهود عليهم لعنة الله , لم يدخروا وسعا في العمل على حرب الإسلام وهدمه , واتخذوا من التأثير على أصحاب المقالات في العقائد سبيلا إلى حرب الإسلام من الداخل , من خلال بث العقائد الفاسدة والمضللة التي عملت على تمزيق صف المسلمين , وإشغالهم بالردود عن واجب الفتوحات الإسلامية , ونشر الإسلام حول الأرض , وقهر العدو المخالف .

[1] - ابن الأثير , علي بن أبي الكرم (ت 630 هـ) : الكامل في التاريخ , ت : عمر عبد السلام تدمري , دار الكتاب العربي، بيروت , ط 1 , 1417 هـ , ج 6 ص 149 .

ثانيا : التأثر بالنصارى

لقد كان للنصارى دور في التفرقة التي أصابت المسلمين , وكانوا يتربصون بالمسلمين من بدء الرسالة , فمن حديث كعب بن مالك قوله " فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءني دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء فيممت بها التنور فسجرته بها " [1]

وفي الحديث إشارة إلى أن النصارى شأنهم شأن اليهود , لم يكونوا يفوتوا فرصة للنيل من الإسلام , وتوجيه الأذى للمسلمين .

ويرى جميل المصري أن اليهود شجعوا حركة الردة , كما شجع النصارى المتنبئين , وأن حركة الردة اشتدت حيث تكثر العناصر اليهودية والنصرانية , حيث تكونت أحلاف بدوية من عبس وغطفان وذبيان , وأن قبائل أسد وغطفان وطيء التي اجتمعت على طليحة الأسدي معروفة بكثرة النصارى واليهود بين أفرادها . [2]

وليس هذا فحسب ؛ بل قد أشار بعض المؤرخين إلى الأصول النصرانية لبعض مدعي النبوة , منهم سجاح التي أشار الطبري إلى أنها كانت " راسخة فِي النصرانية، قد علمت من علم نصارى تغلب " [3]

وذكر جميل المصري أن بعض مصادر التاريخ أشارت إلى نصرانية مسيلمة الكذاب , وأن ممن أيده " قومه عصبية , وأهل الكتاب لنصرانيته , والمجوس لعمالته للفرس " [4]

وبعد الإشارة إلى نصرانية مسيلمة و سجاح , نشير كذلك إلى أن زواجهما كان له الأثر العظيم في التفاف النصارى حول دعوتهم , وذلك لالتقائهم معهم في جانب العصبية لنصرانيتهم , ولأن هدم الإسلام كان هدفا مشتركا لهم جميعا .

---

[1] - الحديث كاملا رواه صحيح البخاري , كتاب المغازي , باب حديث كعب بن مالك برقم : 4418 .

[2] - انظر : المصري , جميل عبد الله : أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول , مكتبة الدار , المدينة المنورة , ص 174 وما بعدها .

[3] - تاريخ الطبري : ج 2 ص 272

[4] - أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول : ص 185 .

ومما يدل كذلك على أن النصارى كانوا لا يفوتون سبيلا لحرب الإسلام إلا ويسلكوه , ما نقله لنا الطبري [1] وابن الأثير [2] عن نصرانية أبو لؤلؤة المجوسي , الذي قتل أمير المؤمنين الفاروق عمر رضي الله عنه , ولقد بقي أبو لؤلؤة على نصرانيته , ويؤكد ذلك قول الفاروق رضي الله عنه " الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة " [3]

ولقد ذهب الشيعة إلى تعظيم أبي لؤلؤة لأنه قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه , والذي يناصبونه العداء تبعا لما في مذهبهم من أكاذيب تجاهه , وليس يعني بالضرورة أنه كان مجوسيا , ومما ذكره المؤرخون في ذلك أنه " كان نهاونديا ، فأسرته الروم أيام فارس ، وأسره المسلمون بعد، فنسب إلى حيث سبي " [4]

وليس ذلك غريبا , فقد تعاون النصارى مع الفرس في حروبهم مع المسلمين , ومن ذلك ما كان منهم من معاونة الفرس في حربهم مع خالد بن الوليد رضي الله عنه , ويحدث الطبري في تاريخه عن ذلك يقول : " لما أصاب خالد يوم الولجة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أليس " [5]

ولم ينس الفرس للنصارى وقوفهم إلى جانبهم , فعمدوا إلى معاونتهم في تطلعهم إلى حرب خالد رضي الله عنه يوم أليس , " وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه ، وهو بقسيانا أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب " [6] و عند ابن الأثير أنه بعد مقتل بعض النصارى في حرب خالد رضي الله عنه يوم الولجة " غضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الفرس واجتمعوا على أليس " [7]

وإن المرء ليعجب والله , من تناسي أمم الكفر ما بينها من فروق واختلافات واعتبارات , إذا وصل الأمر إلى حرب المسلمين , وحرص بعض المسلمين على إذكاء نار الفرقة والفتنة , وبث روح التفرقة والخلاف بدعوى التعصب لمذهب أو طائفة , ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

[1] - تاريخ الطبري : ج 4 ص 190

[2] - الكامل لابن المبرد : ج 2 ص 427

[3] - المرجع السابق : ج 2 ص 428

[4] - انظر : تاريخ الطبري ج 4 ص 136 و الكامل لابن الأثير ج 2 ص 399

[5] - تاريخ الطبري : ج 3 ص 355

[6] - المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة .

[7] - الكامل لابن الأثير : ج 2 ص 237

وإن من كان هذا حاله مع المسلمين في المعارك والحروب , فلا بد وأنه لم يدخر سبيلا في تغذية أسباب التفرقة والاختلاف بين المسلمين , والتي من شأنها أن توهن صفهم , وتذهب ريحهم .

ومن الإنصاف القول أن القصد السيئ لدى أهل الكتاب لم يكن وحده الباعث على تأثيرهم في الافتراق , بل إن بعض من انبهر بما عندهم من المسلمين , حمله إلى المسلمين من بوابة الترجمة , وناظر وناقش فيه , حتى تسبب ذلك منه إلى وقوع الافتراق في المسائل العقدية .

فالتشابه الذي بلغ حد التطابق بين آراء بعض رجال الدين النصارى و بعض فرق المسلمين , يجعلنا أقرب إلى الجزم بأن هذه الفرق أخذت آراءها هذه عن النصارى , تحديدا إذا أخذنا بعين الاعتبار الاختلاط الذي كان بين هؤلاء النصارى و المسلمين , حتى أن بعضهم بلغ منزلة عظيمة في الدولة الإسلامية , منهم سرجون الذي كان كاتب معاوية وصاحب أمره , وكان ابنه يزيد يستشيره في ما يلم به [1]

و سرجون هو والد يحيى الدمشقي (يوحنا) , الذي عدت أقواله " موردا من موارد الفكر الاعتزالي، إذ أنه كان يقول بالأصلح ونفي الصفات الأزلية حرية الإرادة الإنسانية " [2]

ومن النصارى الذين أثروا في فكر المعتزلة كذلك نصراني اسمه سوسن , كان أول من تكلم بالقدر .

قال الإمام الأوزاعي رحمه الله : " أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له : سوسن ، وكان نصرانيا فأسلم ، ثم تنصر ، فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد " [3]

إذا كلام الأوزاعي يشير إلى أن معبد الجهني الذي يعد من أوائل من خاض وتكلم في القدر , قد أخذ عنه الفكرة غيلان الدمشقي [4] وأضاف إليها مباحث جدلية أخرى , الذي أشار الشهرستاني إلى إلى أنه " أول من تكلم في الإرجاء الذي هو تأخير الأعمال عن الإيمان " [5]

---

[1] - انظر : ابن كثير , البداية والنهاية : ج 11 ص 148

[2] - الندوة العالمية للشباب الإسلامي , الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة , إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني , ط 4 , 1420 هـ , ج 1 ص 71

[3] - اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج 4 ص 750

[4] - انظر : الصلابي , علي محمد : الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار , دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت , ط 2 , 1429 هـ , ج 2 ص 413

[5] - الشهرستاني , محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل , مؤسسة الحلبي , ج 1 ص 139

وغيلان الدمشقي هو " الرجل الثاني بعد معبد الجهني من رؤوس بدعة القدرية وقد ظهرت مقولته بالشام وافتتن بها خلق ، ولم يقتصر غيلان على مقولات معبد ، بل تكلم في الصفات فنفى بعض الصفات كالاستواء ، ونسب إليه كذلك : القول بأن الإيمان هو المعرفة ، وأن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان , والقول بخلق القران ، وهي أصول الجعد بن درهم بعده ، ثم أصول الجهمية والمعتزلة ، حيث وضعوا بها القواعد والأصول وناظروا فيها وتوسعوا في هذه البدع ، ويقال إن أول من أنكر استواء الله على عرشه وأوله بالاستيلاء غيلان الدمشقي , قتل 105هـ " [1]

وغيلان هذا " كان قبطيا قدريا ، لم يتكلم أحد في القدر قبله ودعا إليه إلا معبد الجهني " [2] , تلقف مقالة القدر , وخلطها بمزيج من المسائل الجدلية في أصول الدين .

ومما يدل كذلك على أصالة بعض أفكار المعتزلة وآرائهم عند النصارى ما وصلنا من آراء يوحنا الدمشقي , الذي كان يقول بالقدر , ومن كلامه " أن الإنسان مخلوق بلا خطيئة وذو إرادة حرة " [3]

ولدى صاحب الأغاني دليل آخر على أصالة فكرة القدر لدى النصارى , وهو أن " يونس بن متى راوية الأعشى كان قدريا حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالعدل ... وولى الملامة الرجلا

فقيل له من أين اخذ هذا ؟ فقال : أخذه من أساقفة نجران . وكان يعود في كل سنة إلى بني عبد مدان فيمدحهم ويقيم عندهم , ويشرب الخمر معهم وينادمهم , ويسمع من أساقفة نجران قولهم ، فكل شيء في شعره من هذا فمنهم أخذه " [4]

فالتطابق إذا بين أفكار المعتزلة , وما عند النصارى , يرجح حصول التأثر الذي هو مرادنا من هذا المطلب , وإن مما حمل النصارى على تشجيع هذا التأثر رغبتهم في حماية التجمعات المسيحية من أن تصلها الدعوة إلى الإسلام , وذلك من خلال إشغال المسلمين بأنفسهم , وبمجادلة

---

[1] - الصلابي , علي محمد : الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار : ج 2 ص 201

[2] - ابن قتيبة , عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) : المعارف , ت : ثروت عكاشة , الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة , ط 2 , 1992 م , ص 484 .

[3] - الدمشقي ، يوحنا (ت قبل 125هـ/ 743م) ، المائة مقال في الإيمان الأرثوذكسي ، ترجمة : ادريانوس شكور , المكتبة البولسية ، بيروت ، ط2، 1991، ص73

[4] - انظر : الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت : 365هـ) : الأغاني ، تحقيق ابراهيم الابياري ، دار الشعب، القاهرة، ط1، 1969، ج 12 ص 4 .

النصارى والفرق الكلامية التي نبتت بعض آرائها من خلال امتزاج العقائد النصرانية بآرائها وعقائدها .

المطلب الثاني :التأثر بالأمم الأخرى

أولا : التأثر الفرس

بعد الفتح الإسلامي لبلاد فارس , بقي من الفرس من أضمر الحقد على هذه الديانة الجديدة التي اجتاحت مملكتهم , ولذلك فقد سعوا بما أوتوا إلى حرب الإسلام بشتى الوسائل , وهذا ما يفسر تأثر آراء بعض الفرق الإسلامية بعقائد الفرس , ولا يخفى أن من أسباب هذا التأثر انفتاح المسلمين على الحضارة الفارسية , والذي انعكس عند بعضهم على آرائه الدينية والعقدية .

لقد غزا الفرس بعض بلاد العرب كاليمن وشرق الجزيرة العربية [1] , ولعل ذلك أثر في تأثر أهل هذه البلاد بمقالاتهم وآرائهم , كما أن الفرس الذين هاجروا إلى بلاد المسلمين بعد فتح فارس , أدى إلى اختلاطهم بأهل تلك البلاد , ومن الممكن عندها أن يكون بعض المسلمين قد تأثر بأفكارهم ومعتقداتهم .

وقد أشرت في المبحث السابق إلى معاونة الفرس للنصارى في حرب المسلمين , وعلى الصعيد العلمي والفكري , ظهر الأثر الفارسي في عقائد بعض الفرق الإسلامية واضحا , فسوسنة الذي أشرنا في المبحث السابق أنه كان أول من تكلم في القدر كان فارسيا [2] .

ومن أكثر الفرق التي ظهر الأثر الفارسي جليا فيها الشيعة الإمامية , والتي نجد عند دراسة أهم عقائدها تطابقا مع ما عند بعض الديانات الفارسية القديمة , والمتتبع لهذه المواضع يلاحظ تعددها ووضوح كثير منها .

ففي الوقت الذي كان فيه الفرس يوقرون حكامهم ويرفعونهم إلى مقام الإلوهية وينظرون إليهم على أنهم أحفاد الآلهة [3] , يقترب الشيعة من هذه المنزلة في حق أئمتهم , ومن ذلك ما رواه المجلسي عن محمد بن سنان قال : " كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فذكرت اختلاف الشيعة فقال : إن الله لم يزل فرداً متفرداً في وحدانيته ، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة فمكثوا ألف ألف دهر ، ثم خلق الأشياء وأشهدهم خلقها , وأجرى عليها طاعتهم , وجعل فيهم منه ما شاء ، وفوض أمر الأشياء إليهم ، فهم قائمون مقامه ؛ يحلون ما شاءوا ويحرمون ما

---

[1] - انظر : ابن كثير : البداية والنهاية : ج 2 ص 177 و التاريخ الطبري ج 1 ص 399 .

[2] - انظر : الشيباني , عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت 290 هـ) : السنة , ت : محمد القحطاني , دار ابن القيم , الدمام , ط 1 , 1406 هـ , ج 2 ص 391 . و ابن عساكر , محمد بن مكرم (ت 711 هـ) : مختصر تاريخ دمشق , ت : روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع , دار الفكر ، دمشق , ط 1 , 1402 هـ , ج 25 ص 117 .

[3] - عرفان عبد الحميد : دراسات في الفرق والعقائد , دار الرسالة , ص 34 .

شاءوا , ولا يفعلون إلا ما شاء الله ، فهذه الديانة التي من تقدمها غرق ، ومن تأخر عنها محق، خذها يا محمد فإنها من مخزون العلم ومكنونه " [1]

ويؤكد محمد رشيد رضا صلة الفرس بتوظيف التشيع لخرق صف المسلمين وتفريقهم فيقول : " لولا أن خلف زنادقة الفرس هؤلاء السبئيين ، في إدارة دعاية التفريق بين المسلمين ، بالتشيع والغلو في علي وأولاده وأحفاده الطاهرين رضي الله عنهم لزال خطرها بعد ترك اليهود لزعامتها السرية " [2] وفي كلامه رحمه الله إشارة كذلك إلى نشأة التشيع الغالي على يد ابن سبأ , وما تلا ذلك من استخدام اليهود له أداة لحرب الإسلام والمسلمين .

ويؤكد إحسان إلهي ظهير هذا التوظيف للتشيع في عداوة الأمة , ويشير إلى أن فكر التشيع كان ابتداء " حزباً سياسياً يرى رأي علي رضي الله عنه دون معاوية رضي الله عنه في عصر علي , وأما بعد استشهاده وتنازل الحسن عن الخلافة فكانوا مطاوعين لمعاوية أيضاً، مبايعين له ، كما حصل مع إمامهم الحسن وأخيه الحسين " [3] , ثم تطرق إليه الغلو , وتأثر عوامل خارجية منها " أفكار يهودية ومجوسية ونصرانية ، وبعقائد مدخولة مدسوسة ، نقمة على الحكام ومخدوعين بالتزويرات اليهودية والدسائس المجوسية ، ومتأثرين من الذين تظاهروا بالإسلام تستراً على مكايدهم الخبيثة وتدابيرهم الهدامة ، ومن الاختلاط بالفرس والبابليين ومن الموالي الكارهين للعرب ، الحاكمين عليهم والفاتحين بلادهم ، والآخذين زمام أمورهم " [4]

ويذهب المقريزي رحمه الله إلى أبعد من ذلك , فيرجع سبب خروج أكثر الطوائف عن الإسلام إليهم , ويحدد السبب بأن الفرس " كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر في أنفسها ، بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى ، وفي كل ذلك يظهر الله تعالى الحق " [5]

---

[1] - المجلسي، بحار الأنوار، ، مؤسسة الوفاء , بيروت ، ط2 ، 1983م، ج 25 / ص 25

[2] - رضا , محمد رشيد (ت 1354 هـ) : رسائل السنة والشيعة , دار المنار، القاهرة , ط 2 , 1366 هـ , ج 1 ص 6

[3] - إحسان إلهي ظهير (ت 1407 هـ) : الشيعة والتشيع : فرق وتاريخ , إدارة ترجمان السنة، لاهور – باكستان , ط 10 , 1415 هـ , ص 37

[4] - المرجع السابق : ص 40

[5] - المقريزي , أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار , دار الكتب العلمية ، بيروت , ط 1 , 1418 هـ , ج 4 ص 198 .

وذكر رحمه الله بعضا من السبل التي سلكوها لتحقيق هذه الغاية الخبيثة , ومنها أن قوما منهم أظهروا الإسلام " واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، واستبشاع ظلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى ، فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدي ، عنده حقيقة الدين إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار- إذ نسبوا أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى الكفر- وقوم خرجوا إلى القول بادعاء النبوة لقوم سموهم به ، وقوم سلكوا بهم إلى القول بالحلول وسقوط الشرائع ، وآخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، وآخرون قالوا بل هي سبع عشرة صلاة في كل صلاة خمس عشرة ركعة ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكنديّ ، قبل أن يصير خارجيا صفريا ، وقد أظهر عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي الإسلام ليكيد أهله ، فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، واحرق علي رضي الله عنه منهم طوائف أعلنوا بإلهيته ، ومن هذه الأصول حدثت الإسماعيلية والقرامطة " [1]

وثمة صلة أيضا تربط بين التصوف الغالي والفرس , مما يدل على ذلك ما حكاه أبو المعالي الألوسي عن السهروردي [2] أنه " جمع بين النظر والتأله ، وسلك نحواً من مسلك الباطنية ، وجمع بين فلسفة الفرس واليونان ، وعظم أمر الأنوار ، وقرب دين المجوس الأول ، وهي نسخة الباطنية الإسماعيلية ، وكان له يد في السحر والسيمياء ، فقتله المسلمون على الزندقة بحلب في زمان صلاح الدين " [3]

وقد سرى تأثير الفلسفة الفارسية إلى الفرق الباطنية أيضا , فقد قال ابن كثير رحمه الله معرفا القرامطة : " القرامطة ، قبحهم الله ، وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت و مزدك ، وكانا يبيحان المحرمات ، ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل " [4]

---

[1] - المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة .

[2] - هو يحيى بن حبش شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي (587 هـ) , كان فقيها شافعيا , قال الذهبي : قتل لسوء معتقده، وكان أحد الأذكياء , قتل شابا في سنة ست وثمانين وخمسمائة بحلب، ولم يرو شيئا. ميزان الاعتدال ج 2 ص 282 , وانظر ترجمته أيضا في : الأعلام للزركلي ج 8 ص 140 , لسان الميزان لابن حجر ج 3 ص 156 , طبقات الشافعيين لابن كثير ج 1 ص 734 .

[3] - الألوسي , محمود شكري بن عبد الله (1342 هـ) : غاية الأماني في الرد على النبهاني , ت : أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي , مكتبة الرشد، الرياض , ط 1 , 1422 هـ , ج 1 ص 615 .

[4] - البداية والنهاية : ج 14 ص 635 .

وقد أراد رحمه الله أن يشير إلى أنهم ظهروا تأثرا بالفرس أصالة , ومن ثم ببقية المذاهب الردية المرذولة .

ولا عجب في ذلك , فقد كان من شأن الأوائل الذين ناصبوا الإسلام العداء , واشتد أذاهم للنبي صلى الله عليه وسلم أن اطلعوا على فلسفة الفرس , ومنهم النضر بن الحارث , وكان أشد قريش في تكذيب النبي - صلى الله عليه وسلم - والأذى له ولأصحابه وكان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى " [1]

وامتد أثر الفرس أيضا إلى الخوارج [2] , فزيادة عما كان بين الخوارج والفرس من " الاتحاد في الأهداف في حرب الدولة الإسلامية التي يمثلها العرب " [3] والذي دل عليه انضمام عدد من الموالي إلى الجيوش التي شكلها الخوارج [4] , كان لهم أثر أيضا في آراء بعض فرق الخوارج , " فاليزيدية مثلا ادعوا أن الله سبحانه وتعالى يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ بشرعه الشريعة المحمدية " [5] وهذا تعصب وانحياز واضح للفرس لا شك أنه بتأثير آرائهم وأفكارهم , والميمونية كذلك " أباحوا نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الإخوة والأخوات , وتلك آراء فارسية , فالفرس المجوس هم الذين يبيحون تلك الأنكحة " [6]

ويعزو عطا الله المعايطة هذا التأثر إلى " طيلة الإقامة التي أقامها الخوارج وكبار قادتهم في بلاد الفرس , فقد تسربت إلى فرقهم أنواع من الانحلال الذي كان يعيشه الفرس , فقالوا به في نطاق فرقهم " [7]

وكانت الفرق الباطنية وآراؤها مرتعا خصبا لأفكار الفرس ومعتقداتهم , يقول ابن تيمية رحمه الله : " وركبوا لهم – يعني الباطنية - مذهباً من مذاهب الصابئة والمجوس ظاهره

---

[1] - ابن الأثير , الكامل : ج 1 ص 670 .

[2] - الخوارج: هم الذين خرجوا على علي - رضي الله عنه - بعد التحكيم، فقاتلهم علي يوم النهروان ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم في الأحاديث الصحيحة , للمزيد عن عقائدهم وفرقهم انظر : الفرق بين الفرق للبغدادي : ص72 وما بعدها ، الملل والنحل للشهرستاني : ج1 ص 146 وما بعدها و الفصل لابن حزم : ج 5 ص 51-56

[3] - المعايطة , عطا الله : الفرق الإسلامية : ص 104 .

[4] - انظر : الشابي , علي : مباحث في علم الكلام والفلسفة , ص 138 , ط 1 , دار بو سلامة , تونس , نقلا عن المعايطة , عطا الله : الفرق الإسلامية ص 104 .

[5] - أبو زهرة , محمد : تاريخ المذاهب الإسلامية , دار الفكر العربي , القاهرة , ص 62 .

[6] - المرجع السابق : ص 63 .

[7] - المعايطة , عطا الله : الفرق الإسلامية : ص 105 .

التشيع ، ولا ريب أن المجوس والصابئة شر من اليهود والنصارى ولكن تظاهروا بالتشيع ، قالوا : لأن الشيعة أسرع الطوائف استجابةً لنا لما فيهم من الخروج عن الشريعة ولما فيهم من الجهل وتصديق المجهولات " [1]

وشهد لذلك ابن حزم رحمه الله فقال : " ومن هذه الأصول الملعونة حدثت الإسماعيلية والقرامطة وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة قائلتان بالمجوسية المحضة ثم مذهب مزدك الموبذ الذي كان على عهد "أنو شروان بن قيما " ملك الفرس , وكان يقول بوجوب تآسي الناس في النساء والأموال، قال أبو محمد (ابن حزم) : فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوه عن الإسلام كيف شاؤوا إذ هذا هو غرضهم فقط " [2]

كما أن للتأثر بالفرس مظاهر أخرى , منها ما يلمسه الباحث من تعظيم جميع الطوائف الشيعية للصحابي الفارسي سلمان , وذلك " لأنهم يزعمون أنه من الصحابة القلائل الذين ناصروا وشايعوا عليا , ووقفوا إلى جانبه في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام , وكذلك في عهد أبي بكر وعمر وعثمان , وهذا الأمر واضح في كتب الشيعة جميعهم التي تأتي بقصص مختلقة ليس لها أساس تاريخي , بطلها الحقيقي سلمان في موقف الدفاع عن علي ضد أعدائه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تصور هذه القصص " [3]

فالفرس إذا حاولوا ولم يتركوا فرقة إلا وسعوا على غرس أفكارهم في معتقداتها وآرائها , وكانوا يجتهدون في إيجاد أي نقطة التقاء مع هذه الفرق ليبنوا عليها هذا التقارب , وكانت الغاية التي تحدوهم دائما ؛ التطلع إلى هدم الإسلام , والانتقام من أبنائه .

ومن أخطر ما تسبب به الفرس من عوامل نزاع وشقاق في المجتمع المسلم ما عرف بالشعوبية والزندقة , التي اتخذت وسائل عديدة للوصول إلى هدفها ، وهو تشويه العقائد الإسلامية في نفوس الناس القائمة على التوحيد والعبودية لله عز وجل، وكان أسلوب التشكيك

[1] - ابن تيمية , أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ) : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية , ت : محمد رشاد سالم , جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية , ط 1 ، 1406 هـ , ج 3 ص 454 .

[2] - ابن حزم , الفصل : ج 2 ص 91 .

[3] - الخطيب , محمد : الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها , مكتبة الأقصى , عمان , ط 2 , 1426 هـ , ص 360 .

من أهم الأساليب التي اتبعها هؤلاء في زعزعة الإيمان اتجاه العقائد في نفوس المسلمين , وسلك الزنادقة سبلا عديدة بين ظاهر ومستور للوصول إلى هدفها، وكلها لها أثرها وخطرها؛ فهي تريد أن تربك العقائد وتشوه المفاهيم الإسلامية لتزعزع قاعدة المجتمع وأساسه ، وهي تنفذ باسم العقل والمنطق إلى تحوير معنى النصوص من معناها الإسلامي إلى مفاهيم غريبة بعيدة عن الإسلام . [1]

لقد دلت المسالك التي يسلكها الزنادقة أن مرادهم كان : هدم العقائد الإسلامية وتشويهها ، وكان ذلك واضحا في عقائد الألوهية والنبوات , ومن خلال التشكيك في القرآن الكريم والتناسخ , وهذه العقائد ما فتئ الشعوبيون والزنادقة يعملون على حرب الإسلام بها , والسعي إلى هدمه من خلالها .

ثانيا : التأثر بالفلسفة اليونانية

[1] - انظر : الخطيب , محمد أحمد : الشعوبية والزندقة وأثرهما في ظهور العقائد والفرق المنحرفة , مكتبة الأقصى , الأردن , ط 1 , 1994 , ص 22 وما بعدها .

تعريف الفلسفة في المعاجم هي " الحكمة ، أعجمي ، وهو الفيلسوف وقد تفلسف " [1] , وفي مفاتيح العلوم تعريفها : " الفلسفة : مشتقة من كلمة يونانية وهي فيلاسوفيا وتفسيرها : محبة الحكمة فلما أعربت قيل : فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة منه , ومعنى الفلسفة : علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح .

وتنقسم قسمين :

أحدهما : الجزء النظري

والآخر : الجزء العملي

ومنهم من جعل المنطق حرفا ثالثا غير هذين ومنهم من جعله جزءا من أجزاء العلم النظري ومنهم من جعله آلة للفلسفة ومنهم من جعله جزءا منها وآلة لها " [2]

وعرفها السيوطي أنها " الحكمة ، وقيل معرفة الإنسان نفسه ، وقيل : علم الأشياء الأبدية " [3]

لقد كانت ترجمة الكتب التي نشطت بشدة في عهد الخليفة العباسي المأمون سببا في تعرف المسلمين على الفلسفة اليونانية , مع الإشارة إلى أن كثيرا من الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب كانوا من أهل الذمة , وأقبل بعض علماء المسلمين على هذه الكتب , وبدؤوا يدرسون مباحثها , وصارت هذه المباحث محل نقاش وجدل بين المسلمين , بين قابل ورافض لها , وتسببت بحالة من الجدل بين علماء الأصول , وقد تزامن مع ترجمة كتب الفلسفة ظهور عدد من المسائل الكلامية مثل فتنة خلق القرآن التي كان ممن عذب وسجن فيها الإمام أحمد بن حنبل , ويشير ابن تيمية إلى ذلك بقوله " في عصر محنة الجهمية ، في خلافة المأمون والمعتصم ونحوهما ، شرعت طوائف الملاحدة الباطنية تظهر مع ظهور الجهمية كما ظهرت الخرمية أصحاب بابك الخرمي وهذا احد ألقاب الباطنية .

---

1 - ابن منظور , لسان العرب : ج 9 ص 273 , والزبيدي , تاج العروس : ج 24 ص 230 .

2 - البلخي , محمد بن أحمد بن يوسف (ت : 387 هـ) : مفاتيح العلوم , ت : إبراهيم الأبياري , دار الكتاب العربي , ط 2 , ص 153 .

3 - السيوطي , عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ) : معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم , ت : د محمد إبراهيم عبادة , مكتبة الآداب , القاهرة , ط 1 , 1424 هـ , ص 131 .

ويقال إنه سنة عشرين ، وهي السنة التي ضرب فيها أحمد ، ظهرت أوائل القرامطة الذين ظهروا بالعراق ، ثم صارت لهم شوكة بهجر مع الجنابي وأتباعه ، ثم ظهرت دعوتهم الكبرى بأرض المغرب ثم مصر، إلى أن فتحها أهل السنة بعد ذلك وبقاياهم في الأرض متفرقون " [1]

ولقد كان لانبهار بعض علماء المسلمين بالفلسفة اليونانية دور في رواجها بين المسلمين , ووظفها بعض علماء الأصول وأصحاب المقالات في صياغة كلامهم وقواعدهم الأصولية العقدية , قال ابن حجر رحمه الله : " وقد توسع من تأخر من القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم ، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان ، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلا يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرها ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل ، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف ، واجتنب ما أحدثه الخلف " [2]

وتوزع تأثير الفلسفة بين علماء الكلام , وبعض المتصوفة , والفرق الباطنية , وسأذكر فيما سيأتي أمثلة على هذا التأثير .

أما علماء الكلام فإن الناظر في أي كتاب من كتب علم الكلام يلاحظ تكرر ذكر الفلاسفة و ذكر أقوالهم ومناقشتها , وبسط الرد عليهم في المسائل التي اختلفوا فيها مع المسلمين , بل لقد بلغ توسع بعضهم إلى أن جمع في الاشتغال والتصنيف بين علم أصول الدين والفلسفة .

وقد أدى اهتمام علماء المسلمين بالفلسفة إلى ظهور علم المنطق , وهو علم أخذ علماء المسلمين يدرسون مباحثه , واختلفت مواقفهم منه بين رافض له ومؤيد , وبلغ الأمر ببعضهم أن جعلوه ميزانا للعلوم , وأن من لم يتعلمه فلا ثقة بعلمه . [3]

---

[1] - ابن تيمية , درء تعارض العقل مع النقل : ج 5 ص 185 .
[2] - ابن حجر , فتح الباري : ج 13 ص 253 .
[3] - الغزالي , أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ) : المستصفى من علم الأصول , دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1996 م ص 10 .

ومقابل هذا الموقف المعظم للمنطق اليوناني , ظهرت فئة من علماء المسلمين عارضته , ورأى ابن الصلاح رحمه الله حرمة النظر فيه , وكان مما رد به على كلام الغزالي حول الوثوق بعلم من لم يتعلم المنطق أن قال : " هذا مردود ، إذ كل صحيح الذهن منطقي بالطبع ، و كم من إمام ما رفع بالمنطق رأسا " [1] , ومن أشهر من حمل لواء مهاجمة ورفض المنطق ابن تيمية رحمه الله , ومن كلامه أن المنطق " لا يحتاج إليه الذكي ، و لا ينتفع به البليد " [2]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن موقف ابن تيمية رحمه الله من المنطق كان متوازناً منصفاً , ففي سياق كلامه الذي نقلت جزءا منه يقول رحمه أن الخطأ في طائفة من قضايا المنطق , وأنه شدد في النكير والرد عليه لما رآه من أخطاء عند المتكلمين في الإلهيات بنيت على أصول من المنطق . " [3] إلا أنه رحمه الله احتفظ بموقفه المحافظ تجاهه , وأنه ليس سبيلا للهداية وإلا لانتفع به المناطقة وكان سببا في هدايتهم " [4] والصحيح أنه من علوم الآلة التي لا تتعلق بمضمون علم من العلوم , وإنما غايته صياغة أطر وقواعد للتفكير الإنساني .

أما المتصوفة فقد اشتغل بعضهم بالفلسفة وأكثر من الاطلاع والقراءة فيها , حتى أفضت به إلى الخروج عن الصواب , بل وعن الدين أحيانا .

يقول عبد الكريم الجيلي عن أفلاطون " لقد اجتمعت بأفلاطون الذي يعدونه أهل الظاهر كافرا , فرأيته وقد ملأ العالم الغيبي نورا وبهجة , ورأيت له مكانة لم أرها إلا لآحاد من الأولياء , فقلت له : من أنت ؟ قال : قطب الزمان وواحد الأوان . ولكم رأينا من عجائب وغرائب مثل هذا ليس من شرطها أن تفشي , وقد رمزنا لك في هذا الباب أسراراً كثيرة ما كان يسعنا أن نتكلم فيها بغير هذا اللسان , فألق القشر من الخطاب وخذ اللب إن كنت من أولي الألباب " [5]

---

[1] - الذهبي , سير أعلام النبلاء : ج 19 ص 327 .
[2] - ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 9 ص 82 .
[3] - انظر : المرجع السابق : نفس الجزء ورقم الصفحة .
[4] - انظر كلامه في : المرجع السابق ج 5 ص 544 .
[5] - الجيلي , عبد الكريم (ت 826 هـ) : الإنسان الكامل , ط 4 , 1981 , ج 2 ص 52 – 53 .

وعن الحركات الباطنية يذكر محمد الخطيب في كتابه الحركات الباطنية أنه " كان لترجمة المؤلفات الفلسفية اليونانية وانتشارها في القرن التاسع الميلادي أثر واسع في تبلور فكر هذه الحركات – يعني الباطنية – " [1] ويشير كذلك إلى أن المذهب الاسكندراني الذي انبثقت عنه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة , له أهمية رئيسة في تاريخ الباطنية في العالم الإسلامي . [2]

إن الحركة العلمية النشيطة وشغف بعض علماء المسلمين في الاطلاع على ما عند الأمم الأخرى , كان شببا في اطلاع المسلمين على تراث الأمم الأخرى , وتباينت مواقف المسلمين إزاء ذلك , فمنهم من قبله بعيوبه ومخالفته للشرع , ومنهم من هذبه وانتقى منه ما يناسب ويخدم الإسلام , وصار هذا التباين في الموقف سببا من أسباب تفرق المسلمين .

ولم تغب هنا ظاهرة استغلال أعداء الإسلام لجانب الانفتاح غير المنضبط , فاستخدموا ما عند الأمم الأخرى لتقوية دعائم أفكارهم وعقائدهم الباطلة , وتشكيك المسلمين في دينهم وعقيدتهم.

[1] - محمد الخطيب , الحركات الباطنية في العالم الإسلامي : ص 36 .
[2] - انظر : المرجع السابق : ص 37 .

الفصل الثالث

موانع الافتراق العقدي

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الدعوة إلى عقيدة السلف

المبحث الثاني : الضوابط العقدية المانعة من الافتراق

المبحث الأول : الدعوة إلى عقيدة السلف

المطلب الأول : تعريف " عقيدة السلف " لغة واصطلاحا

أولا : العقيدة لغة واصطلاحا

العقيدة (لغة) مادتها عقد , عند الفراهيدي " عقد : الأعقاد والعقود : جماعة عقد البناء . وعقده تعقيدا أي جعل له عقودا . وعقدت الحبل عقدا ، ونحوه فانعقد والعقدة: موضع العقد من النظام ونحوه . وتعقد السحاب : إذا صار كأنه عقد مضروب مبني "[1] و كلمة عقيدة " مأخوذة من العقد ، والعقد نقيض الحل ، وهو الربط والشد بقوة ، ومنه الإحكام والإبرام والتماسك والمراصّة ، والإثبات والتوثق ، ثم توسع في معنى العقد فاستعمل في الأمور المعنوية ، فأصبح على العهد وتأكيد اليمين ، والمعاقدة المعاهدة ، وعاقده عاهده ، وتعاقد القوم تعاهدوا ويطلق على البيع : عقد ، لارتباط البائع بالمشتري بهذا العقد اللازم ، ومنه عقد طرفي الثوب لتلازمهما ، ومنه عقد الإزار، لأنه يشد بإحكام "[2] وهي " تصديق قاطع بشيء يؤمن به مجموعة من الأشخاص "[3] .

أما اصطلاحا ؛ فهي :

" 1- التصديق الجازم فيما يجب لله عز وجل من الوحدانية، والربوبية، والإفراد بالعبادة، والإيمان بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا .

2- تصميم القلب، والاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك في المطالب الإلهية، والنبوات، وأمور المعاد ، وغيرها مما يجب الإيمان به والمطالب الإلهية : الإيمان بالله في ربوبيته ، وإلوهيته ، وأسمائه وصفاته .

3- ما عقد الإنسان قلبه عليه، ودان لله عز وجل به "[4]

والارتباط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي ظاهر , " لأن هذا الذي جزم بالشيء، وصمم عليه، قد ألزمه قلبه، وربطه عليه، وشده بقوة، بحيث لا يتفلت منه أبدا "[5]

ثانيا : السلف لغة واصطلاحا

---

[1] - العين : ج 1 ص 140 .

[2] - انظر : لسان العرب : 3 /296 – 300 ، ومعجم مقاييس اللغة 86/4 – 90 ، والقاموس المحيط : ص 300 .

[3] - د . أحمد مختار (ت 1424 هـ) مع فريق عمل , معجم اللغة العربية المعاصرة , عالم الكتب , ط 1 , 1429 هـ , ج 2 ص 1572 .

[4] - د. عبد القادر بن محمد عطا صوفي : المفيد في مهمات التوحيد , دار الأعلام , ط 1 , 1422 هـ , ص 9 .

[5] - المصدر السابق : ص 9 .

عند الفراهيدي " كل شيء قدمته فهو سلف ، والفعل سلف يسلُف سلُوفا . والقوم إذا أرادوا أن ينفروا فمن تقدم من نفيرهم فسبق فهو سلف لهم " [1]

وفي لسان العرب قال " الجوهري : سلف يسلف سلفا مثال طلب يطلب طلبا أي مضى . والقوم السلاف : المتقدمون . وسلف الرجل : آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف وسلاف " [2]

واصطلاحا ؛ هم " العلماء العدول الوارثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحقائق والمعارف والعقائد , ويمكن أن يقال : هم السادة الأخيار إلى نهاية المائة الثالثة من الهجرة النبوية الشريفة المباركة " [3]

والظاهر أن العلماء أخذوا هذا التعريف من فهمهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم " خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته " [4]

وليس يعني بالضرورة أن كل من أدرك هذه الحقبة هو من السلف الصالح الممدوحين في الحديث , فإن الالتزام باعتقاد السلف والسلامة من نواقضه شرط لهذه الخيرية .

كما أن الوصف ينسحب على من اتبع أهل هذه القرون المفضلة , وسار على نهجهم , واقتفى أثرهم , وقد دلت الآيات الكريمة على ذلك , قال تعالى :

{ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ } [التوبة : 100]

---

[1] - الفراهيدي , العين : ج 7 ص 258 .
[2] - ابن منظور , لسان العرب : ج 9 ص 158 .
[3] - الكناني , محمد بن إبراهيم (ت 733 هـ) , إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل , ت : وهبي غاوجي , دار السلام للطباعة والنشر , مصر , ط 1 , 1410 هـ , ص 40 .
[4] - رواه البخاري , باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم , برقم : 3651 .

وقد أثنى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم , ودعا إلى الاقتداء والتأسي بهم , قال عليه الصلاة والسلام : " إنه من يعش منكم فسيري اختلافا كثيرا , فعليكم بسنتي وسنه الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي , تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " [1]

فسبيل النجاة إنما يكون بالتمسك بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم , وصحابته الكرام , ومن اتبعهم بإحسان , وإن الخيرية تتحقق لمن أحسن التأسي والاقتداء بأهل القرون المفضلة , رضي الله عنهم وأرضاهم .

[1] - رواه الترمذي , كتاب العلم , باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع برقم 2676 . قال الترمذي: حسن صحيح ، وصححه الحاكم 95/1 .

المطلب الثاني : كيف منعت عقيدة السلف الافتراق .

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال : 24]

وأي حياة أعظم من الاعتصام بالكتاب والسنة , والتمسك بهديهما حتى نلقى الله تعالى , أي فوز أعظم من أن نلقى الله على ما لقيه به السلف الصالح , الذين شهد لهم الكتاب والسنة بالفضل وعلو المنزلة .

فالآية خطاب للمؤمنين يدعوهم إلى الاستجابة " لما يحييكم من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهل موته . (...) أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال ، أو من الجهاد فإنه سبب بقائكم , إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم " [1]

فعقيدة السلف جامعة لكل المحاسن والفضائل , وهي سبيل للنجاة في الدارين , وحفظ بيضة المسلمين , وصيانة حمى المجتمع المسلم .

وللدعوة إلى عقيدة السلف من الخصائص والميزات ما يجعلها أهلا لهذه المنزلة الشريفة العالية , ويجعلها حلا لمشاكل الأمة وسبيلا لرفعتها وعزها , وسألخص الحديث عن ميزاتها في نقاط .

أولا : وحدة المصدر

فإن جميع مسائل العقيدة ومباحثها لم تكن تخرج في الاستدلال عند السلف عن إطار الكتاب والسنة , فهما المعين الذي استقى منه جيل السلف عقيدته , فلم يتلوث بأي مشرب خارجي من آراء الرجال وأهوائهم .

قال تعالى : { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ

[1] - البيضاوي , عبد الله بن عمر (ت 685 هـ) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل , ت : محمد المرعشلي , دار إحياء التراث العربي , بيروت , ط 1 , 1418 هـ , ج 3 ص 55 .

بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [البقرة : آية 213]

وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء : آية 59] .

فالطاعة لله ورسوله , والرجوع لا يكون إلا إليهم حال التنازع , وهذا هو صمام الأمان للمجتمع من أي زيغ أو انحراف , ومخالفة الكتاب والسنة هي الباب الذي أتي منه المبتدعة , فضلوا وزلوا .

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله : " وكذلك جميع أهل البدع من الجهمية والمرجئة والحرورية ، أهل الزيغ فيما ابتدعوا وخالفوا الكتاب والسنة ، وما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين ، وأجمعت عليه الأمة كفعل المعتزلة والقدرية " [1]

ثانيا : البعد عن الجدل و المراء

قال تعالى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاس مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا } [الكهف : آية 54]

" قوله تعالى : وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ؛ فيمن نزلت قولان أحدهما : أنه النضر بن الحارث ، وكان جداله في القرآن، قاله ابن عباس . والثاني : أبي بن خلف ، وكان جداله في البعث حين أتى بعظم قد رم ، فقال: أيقدر الله على إعادة هذا ؟ " [2]

لقد كان السلف الكرام أحرص الناس على اجتناب الجدل في مسائل الدين , وكثرت النقول عنهم في ذم الجدل و المراء في مسائل الدين العملية (الفقهية) فضلا عن العقدية , وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ مقام الكتاب والسنة , وتجنيبهما أي لون من ألوان الجدال الذي لا يريد منه صاحبه سوى تزويق الكلام , ومماراة الخصوم .

---

[1] - الأشعري , أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 324 هـ) : الإبانة عن أصول الديانة , ت : د. فوقية حسين محمود , دار الأنصار, القاهرة , ط 1 , 1397هـ , ص 19 .

[2] - ابن الجوزي , عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) : زاد المسير في علم التفسير , دار الكتاب العربي , بيروت , ط 1 , 1422 هـ , ج 3 ص 92 .

في الحديث " أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبي فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا. وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا - وفي رواية أنهم تكلموا في القدر- فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج كأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال : بهذا أمرتم - أو بهذا بعثتم - أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا ، إنكم لستم مما هاهنا في شيء ، انظروا الذي أمرتم به ، فاعملوا به والذي نهيتم عنه فانتهوا " [1]

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكر أصحابي فامسكوا وإذا ذكر النجوم فامسكوا وإذا ذكر القدر فامسكوا " [2]

وفي حديث يحيى بن يعمر أنه و حميد بن عبد الرحمن الحميري سألا عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن شأن الذين يتكلمون في القدر ويخوضون فيه , فأجاب : " فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدكم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر " [3]

وفي الصحيحين أن أبا قتادة حدث قال كنا عند عمران بن حصين في رهط منا وفينا بشير بن كعب فحدثنا عمران يومئذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحياء خير كله . قال : أو قال : الحياء كله خير . فقال بشير بن كعب : إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينة ووقارا لله ومنه ضعف . قال : فغضب عمران حتى احمرتا عيناه وقال : ألا أراني أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعارض فيه . قال : فأعاد عمران الحديث . قال : فأعاد بشير فغضب عمران . قال فما زلنا نقول فيه إنه منا يا أبا نجيد إنه لا بأس به " [4]

[1] - رواه أحمد , مسند المكثرين من الصحابة , بهذا أمرتم أو بهذا بعثتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض , برقم : 6806 , قال الشيخ أحمد شاكر في التعليق على المسند : إسناده صحيح. انظر: 73/11 .

2 _ الطبراني في المعجم الكبير: ج 10 ص 198 . قال الهيثمي في مجمع الزوائد :ج 7 ص202 : " رواه الطبراني وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح "

3- رواه مسلم , كتاب الإيمان , باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر, برقم : 8 .

4- متفق عليه ؛ البخاري : كتاب الأدب، باب الحياء , برقم : 5766 ، ومسلم , كتاب الإيمان، باب عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ، برقم : 37 .

فهكذا كان حال السلف الكرام تجاه أي محاولة للجدل حول ما أتى به الكتاب والسنة , وبهذا عصم مجتمعهم من أي شرخ أو شقاق أو نزاع , وبهذا سلم مجتمعهم من الخلاف العقدي الذي من شأنه أن يودي بالأمة , إن لم يتداركها أهل العلم والتحقيق بفهمهم و حسن تصرفهم .

قال النووي رحمه الله : " وما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به النبي واعتقاده اعتقادا جازما سليما من كل شك ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم فان النبي لم يطالب احد بشيء سوى ما ذكرناه ، وكذلك الخلفاء الراشدون ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول , بل الصواب للعوام وجماهير المتفقهين والفقهاء الكف عن الخوض في دقائق الكلام ؛ مخافة من اختلال يتطرق إلى عقائدهم يصعب عليهم إخراجه , بل الصواب لهم الاقتصار على ما ذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم " [1]

وقال البهوتي رحمه الله : " ليس له – يعني المفتي - أن يفتي في شيء من مسائل الكلام مفصلا بل يمنع السائل وسائر العامة الخوض في ذلك أصلا (...) والعامة أولى ويأمر الكل بالإيمان المجمل " [2]

" وقال أبو الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه : أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت " [3]

[1] - النووي , يحيى بن شرف (ت 676 هـ) : المجموع في شرح المهذب , دار الفكر , ج 1 ص 24 – 25 .

2- البهوتي , منصور بن يونس (ت 1051 هـ) : كشاف القناع , دار الكتب العلمية , بيروت , 1418 هـ ، ج 6 ص 381 .

3- ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص 77 .

ثالثا : تغليب مصلحة الإسلام على أي خلاف

لقد حفل تاريخ السلف الصالح بالأمثلة على تجردهم نصرة لدينهم , وتعاليهم على أين خلاف من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين , وجعلوا من انشغالهم بالجهاد في سبيل الله سبيلا لدفع فتن الشقاق والنزاع فيما بينهم .

عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن يجمع الله على هذه الأمة سيفين ، سيفا منها ، وسيفا من عدوها " [1]

وفي الحديث إشارة إلى أن سيوف المسلمين إن انشغلت عن عدوهم , فإنها ستعمل فيها , ولذا كان الجهاد ضمانة لسلامة الأمة من الفتن والضلال والزيغ , لأنه انشغال بالكافرين عن مسلم اختلفنا معه في قضية عظيمة أو صغيرة .

قال ابن تيمية رحمه الله : " كانت البدع في القرون الثلاثة الفاضلة مقموعة , وكانت الشريعة أعز وأظهر, وكان القيام بجهاد أعداء الدين من الكافرين والمنافقين أعظم " [2]

وسأعرض هنا نماذج لهذه المواقف المشرفة لتكون نبراسا يهتدي به من أحب التأسي والاقتداء .

روى ابن كثير رحمه الله من خبر معاوية رضي الله عنه أنه " لما كان من أمره وأمر أمير المؤمنين علي ما كان ، لم يقع في تلك الأيام فتح بالكلية ، لا على يديه ولا على يدي علي ، وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله، وقهر جنده ودحاهم ، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين , لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت , فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف ، وبعث يطلب الهدنة " [3]

1- رواه أبو داود , كتاب الملاحم , باب ارتفاع الفتنة في الملاحم , برقم : 4301 , قال المناوي في (فيض القدير) ج 5 ص 302 : يعني أن السيفين لا يجتمعان فيؤديان إلى استئصالهم ، ولكن إذا جعلوا بأسهم بينهم سلَّط عليهم العدو وكفَّ بأسهم عن أنفسهم

2- ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 4 ص 21 .

3- ابن كثير , البداية والنهاية : ج 8 ص 127 .

تأمل إشارته رحمه الله إلى أن فترة الخلاف لم يقع فيها فتح بالكلية , وهذا من شؤم الخلاف والتفرق , وكيف أن ملك الروم خاف و طلب الهدنة ذليلا بمجرد أن هدده أمير المؤمنين معوية رضي الله عنه بالاتحاد مع ابن عمه علي رضي الله عنهم وأرضاهم .

والحمد لله الذي رزق الأمة عظماء اقتفوا أثر سلفهم , فاختلفت آراؤهم ولم تختلف قلوبهم , ونسوا خلافهم لما رأوا عدوا يتربص بالأمة , لا يفرق بين سلفي أو أشعري , أو غيرهم .

ولو كانت لوثة الخلاف المقيت سرت إلى قلوبهم , لكان بلاء الأمة عظيم , لكان نفوذ الدولة الفاطمية لا يزال في أوجه , وقد قضى عليهم وعلى الصليبيين , وفتح بيت المقدس صلاح الدين الأيوبي [1] الأشعري , ولكانت فلسطين الآن لقمة سائغة في فم يهود , لو لم ينبري لهم السلطان عبد الحميد [2] الصوفي , وغيرها الكثير من المواقف التي قيض الله لأمة الإسلام فيها من يستعلي الخلاف لأجل مصلحة الدين والأمة .

روى الذهبي في السير " حدثني أحمد بن سنان قال : بلغني أن أحمد بن حنبل ، جعل المعتصم في حل يوم فتح عاصمة بابك [3] وظفر به ، أو في - فتح عمورية - ، فقال : هو في حل من ضربي " [4]

وهنا بلغ النبل مداه , عندما جعل الإمام أحمد بن حنبل الخليفة المعتصم في حل من سجنه وضربه , إكراما له لما بلغه خبر قضائه على فتنة ودولة بابك الخرمي , فأي رفعة وأي كرامة ينالها من يجعل هم دينه وأمته فوق هم الانتصار لنفسه .

---

1 - هو يوسف بن أيوب بن شاذي الكردي أبو المظفر، الملقب بالملك المظفر الناصر صلاح الدين الأيوبي . كان عادلا وحازما مجاهدا ، قائد معركة حطين ، أسس الدولة الأيوبية سنة 564هـ بمصر والشام . توفي سنة 589هـ .
انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 7 / 139، سير أعلام النبلاء للذهبي 21 / 278

2- السلطان عبد الحميد الثاني (1842 - 1918م) آخر سلاطين الخلافة العثمانية الأقوياء ، تعرض تاريخه للتشويه لمقاومته النفوذ الغربي اليهودي . (انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص7 و 587 محمد فريد بك) .

[3] - بابك الخرمي هو أحد المارقين عن الإسلام، أراد أن يقيم ملة المجوس في فارس بعد مقتل أبي مسلم الخراساني , وإليه تنتمي الحركة البابكية " الخرمية " ، التي كان مركزها " البنذ " ، وهي بلد في أذربيجان , وأعان الله المعتصم على القضاء عليها , للمزيد انظر : " تاريخ " الطبري 7 / 141 و284 و300 و308 و9 / 31، 55، والمقدسي في " البدء والتاريخ " 3 / 30 ، 31 و5 / 134 ، و " مروج الذهب " للمسعودي 2 / 350، 351 ، و" تاريخ دول الإسلام " للذهبي : 134 وما بعدها .

4- الذهبي , سير أعلام النبلاء : ج 11 ص 257 – 258 .

ومثال على ذلك أيضا " صلاح الدين الأيوبي الذي كسر الله على يده شوكة الصليبين في حطين وفتح على يديه بيت المقدس، كما أزال على يديه دولة الباطنيين العبيديين ، ومحا مذهبهم الرافضي الباطني الذي حاولوا نشره بين المسلمين عن طريق الأزهر الذي أسسوه لهذا الغرض بعد دخولهم مصر بعد منتصف القرن الرابع الهجري " [1]

ويذكر هنا أن ابن قدامة المقدسي رحمه الله صاحب رسالة " تحريم الخوض في علم الكلام " كان وبعض أسرته من جنود جيش صلاح الدين الأيوبي رحمه الله في جهاد الصليبيين . [2]

وقد حفظ التاريخ أنه " لما دخل القائد الاستعماري الفرنسي (غورو) دمشق في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي منتصرا على الشعب العربي الأعزل في سورية , ووصل إلى مثوى البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي , ضرب قبره بقدمه , وقال كلمته المشهورة : " ها قد عدنا يا صلاح الدين " , وقد هان عليه أن ينفس عن حقده أمام قبور الموتى , لأنه لم يجد في الأحياء من يرد بأسه " [3]

وهذا العز بن عبد السلام , لم تمنعه أشعريته من الإفتاء ببيع أمراء الدولة الأيوبية في مصر في زمنه , وهذا من تجرده رحمه الله , وإيثاره مصلحة الإسلام فوق كل مصلحة . [4]

1- الزهراني , محمد بن مطر (ت 1427 هـ) : تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري , دار الهجرة للنشر والتوزيع ، الرياض , ط 1 , 1417 هـ , ص 204 .

2- انظر الخبر مع ترجمته في": سير أعلام النبلاء (22 \ 165) ، وابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة (2 \ 132) ، وابن كثير : البداية والنهاية (13 \ 69) ، وأبي شامة : الذيل على الروضتين (ص 139) ، وابن العماد : شذرات الذهب (5 \ 88) ، وابن شاكر : فوات الوفيات (2 \ 158) .

3- الميداني , عبد الرحمن حسن حبنكة (ت 1425 هـ) : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير - الاستِشراق - الاستعمار ، دراسة وتحليل وتوجيه , دار القلم , دمشق , ط 8 , 1420 هـ , ص 190 .

4- انظر : السبكي , طبقات الشافعية : ج 8 ص 216 .

وهذا السلطان عبد الحميد الذي " رفض الملايين العديدة لقاء فلسطين ، فقبل حزب الاتحاد والترقي مليونين لتنفيذ نفس الغرض " [1]

ومن مآثره رحمه الله ما قام به الشيخ العلامة أبو الحسين علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني الذي " جمع نسخاً عتيقة عديدة لصحيح البخاري، وقابل بعضها ببعض ، وعمل نسخة لصحيح البخاري ، وطبعت نسخته بواسطة السلطان عبد الحميد رحمه الله وغفر له ، وهي تعتبر قمة في التدقيق والتحقيق " [2]

وما ذكرناه دليل على أن الاختلاف في العقائد لم يكن حجة لأحد أعلام أمتنا العظماء لخذلان الدين والأمة , بل ؛ لقد سطر لهم التاريخ ما قدموه تجاه دينهم وأمتهم , وهذا درس عظيم في الإنصاف لخلف هؤلاء العظماء .

وما أحوج الأمة اليوم إلى هكذا نماذج من الفرق المختلفة المتناحرة , ما أحوجها إلى من يحشد الأمة تحت مسمى " أهل السنة والجماعة " العام , والذي يشمل كل من انتحل السنة مذهبا , أمام هذا المد الرافضي الباطني الذي غزا بلاد المسلمين , وأعمل سيفه فيهم قتلا وذبحا وتشريدا .

قال ابن تيمية رحمه الله : " ولا ريب أنهم - أي الرافضة - أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة ، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة ، فجمهور العامة لا تعرف ضد السني إلا الرافضي ، فإذا قال أحدهم أنا سني فإنما معناه لست رافضياً " [3] .

---

[1] - على جريشه ومحمود محمد سالم : حاضر العالم الإسلامي , مطاب الدجوي , القاهرة , ص 100 .

[2] - الأصبحي , مالك بن أنس (ت 179 هـ) : الموطأ , ت : محمد مصطفى الأعظمي , مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية , الإمارات , ط 1 , 1425 هـ , ج 1 ص 371 .

[3] - ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 3 ص 356 .

وقد سطر رحمه الله قاعدة جليلة في هذا الباب , فقال : " إذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب : كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس " [1]

وأي مضرة فوق ضياع البلاد , وانتهاك الأعراض , وانتهاك الحرمات , حتى نقدم عليه مضرة الاختلاف ببعض المسائل العلمية ؟

فالواجب على المسلم أن يفزع إلى إخوانه المسلمين , يضع يده في أيديهم , متناسيا تلك الخلافات التي ما كانت لتثار إلا في زمن بلغت فيه الأمة حالة العز والمنعة والاستقرار , أما والحال كما نعاين اليوم , فلا عذر لأحد ترك ما ينبغي فعله , وانشغل بالمفضول عن الفاضل .

[1] - المصدر السابق : ج 28 ص 212 .

المبحث الثاني : الضوابط المانعة من الافتراق العقدي

المطلب الأول : الاعتصام بالكتاب والسنة

قال تعالى : { واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } [آل عمران : 103]

الآية الكريمة تلخص الدعوة التي قام عليها الإسلام , الوحدة والاعتصام والاجتماع والائتلاف , وأنه سبيل النجاة من النار , وأنه مما يمتن الله تعالى به على عباده .

قال الطبري : " وأما الحبل ، فإنه السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة ، ولذلك سمي الأمان حبلا ، لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف ، والنجاة من الجزع والذعر " [1] " واختلفوا في معناه هاهنا ، قال ابن عباس : معناه تمسكوا بدين الله ، وقال ابن مسعود : هو الجماعة ، وقال : عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة " [2]

قال ابن عباس رضي الله عنه : " تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل به أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة " [3]

وتخاطب الآية المؤمنين موصية لهم أن " لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام . كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام . وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا , وصاروا إخوانا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف " [4]

---

[1] - الطبري , جامع البيان : ج 7 ص 70 .

[2] - البغوي , أبو محمد الحسين بن مسعود : معالم التنزيل في تفسير القرآن , ت : عبد الرزاق المهدي , ط 1 , 1420 هـ , ج 1 ص 480 .

[3] - الذهبي , أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت : 748 هـ) , المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال , ت : محب الدين الخطيب , بدون طبعة , بدون دار نشر , ج 1 ص 109 .

[4] - الزمخشري , الكشاف : ج 1 ص 395 .

وفي الآية كذلك إشارة إلى أن الاختلاف المذموم هو الذي يكون في الأصول لا الفروع , وأن الاجتماع لا ينقضه الاختلاف في المسائل الفرعية , قال الكيا الهراسي رحمه الله : " وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع ، فإن ذلك ليس اختلافا ، إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع ، وليس اختلاف حكم الحائض والطاهرة في الصوم والصلاة ، واختلاف حكم المقيم والمسافر في الإتمام والقصر ، اختلافا من حيث إن الواجب على كل واحد منهم ، غير الواجب على الآخر ، والاختلاف إذا هو كالاختلاف في الصناعات والحرف و أصغار الأشياء ، ومراسم الناس في أنها سبب الانتظام ، وإنما منع الله اختلافا هو سبب الفساد " [1]

وليست وحدها ؛ فقد تعاضدت آيات الكتاب العزيز على تقرير هذا المبدأ , " ولذلك نرى سورة الفاتحة التي هي دعاء اجتماعي للمؤمنين عامة يدعو بها كل واحد منهم على حدته - استعملت فيها صيغ الجمع لا الواحد ، فقال : (اهدنا الصراط المستقيم) ، ولم يقل: (اهدني) ؛ وذلك لأن القرآن - كما قلنا من قبل - لا يرى للفرد حياة قائمة بالذات ، بل الحياة عنده للجماعة فقط ، وما الأفراد وأعمالهم - في نظره - إلا لأن تتكون منهم ، ومنها الهيئة الاجتماعية ؛ فلهذا عبر بصيغ الجمع في هذا الدعاء الذي هو حاصل الإيمان ، و زبدة القرآن ، ومخ الإسلام , وكذلك جعل الدعاء الذي يدعو به كل مسلم لأخيه لما يلقاه : (السلام عليكم) بالجمع ، لا (السلام عليك) ، وكذلك السلام حين الخروج من الصلاة ، والعلة فيه أيضًا ما ذكرناه ، لا ما فهمه كثير من الناس " [2]

ولقد قرن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الردة وترك الدين بمفارقة الجماعة , قال صلى الله عليه وسلم : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة " [3]

وعن أبي شريح الخزاعي - رضي الله عنه – قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أبشروا ، أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؟ قالوا :

---

[1] - الكيا الهراسي , علي بن محمد بن علي (ت : 504 هـ) : أحكام القرآن , ت : موسى محمد علي و عزة عبد عطية , دار الكتب العلمية ، بيروت , ط 2 , 1405 هـ , ج 2 ص 300 .

[2] - محي الدين آزاد , الخلافة الإسلامية , مجلة المنار , المجلد : 23 ص : 45 .

[3] - رواه مسلم , كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب ما يباح به دم المسلم , برقم : 1676 .

بلى . قال : إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ، ولن تهلكوا بعده أبدا " [1]

والأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم في باب الاجتماع على الكتاب والسنة , والحض عليه والنهي عن التفرق والتشاحن كثيرة ومستفيضة . [2]

يقول ابن تيمية رحمه الله : " " فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإنه أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما، مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد ، والعلم والمعرفة ، فإقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا ينجيه من عذاب الله ، إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله ؛ فلا يستحق العبادة أحد إلا هو ، وأن محمدا رسول الله ؛ فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته صلى الله عليه وسلم فيما أمر " [3]

وهذا تأكيد منه على أن الاجتماع إنما يكون على كتاب الله وسنة نبيه , وأن ذلك إنما يكون ترجمة حية لشهادة التوحيد التي يدخل الإنسان بها الإسلام , وينجو من الكفر , وهذا ما كان عليه السلف رضوان الله عليهم , ومن هنا " فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يتقدم بين يديه ، بل ينظر ما قال فيكون قوله تبعا لقوله ، وعمله تبعا لأمره ، فهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم ، ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين ؛ فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ، ولا يؤسس دينا غير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين نظر فيما قاله الله والرسول صلى الله عليه وسلم فمنه يتعلم، و به يتكلم ، وفيه ينظر، و به يستدلّ، فهذا أصل أهل السنة " [4]

---

[1] - أخرجه ابن حبان في صحيحه , باب : ذكر نفي الضلال عن الآخذ بالقرآن ، برقم 122 ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ج 1 ص 95 : رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب : ج1 ص 124 : صحيح .

[2] - أتيت على ذكر بعضها في الفصل الأول من هذه الرسالة .

[3] - مجموع الفتاوى : ج 3 ص 104 – 109 .

[4] - المصدر السابق : ج 13 ص 63 .

إن التأكيد على الاعتصام بالكتاب والسنة يتضمن أمور مهمة ينبغي على المسلم الأخذ والعمل بها , فهو – كما أشرنا – يشير إلى حتمية الأخذ بالكتاب والسنة وإفرادهما كمصدر للتلقي , إلى احترام وإجلال السلف الذين هم أول وأجل من سار على هذه القاعدة , وينبني على ذلك التآلف والتعاضد نحو هدف واحد , هو التمكين لدين الله في الأرض , وصيانته من أي عدوان عليه .

كما أن الإعراض عن هذا الأصل العظيم سبب لتفشي الجهل والزيغ في الأمة , فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعا ، ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم ، ويبقي في الناس رؤوسا جهالا يفتون بغير علم , فيضلون ويضلون " [1]

إن اتحاد الهدف لدى المسلمين المتمسكين بهذا الأصل العظيم يحملهم على الالتزام بالضوابط الشرعية التي توصل إلى هذا المقصد العظيم النبيل , فالكتاب والسنة لم يتركا صغيرة ولا كبيرة إلا وبيناها , مع ضرورة العمل على الاجتهاد في الإطار الذي لا يخالف هذا الأصل العظيم .

إن من أعظم ما يعين على تماسك المسلمين ووحدة صفهم , استشعارهم عداوة أهل الباطل لهم ولدينهم , وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى { تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى } [الحشر : 59] : " تحسبهم جميعا مجتمعين ذوى ألفة واتحاد وقلوبهم شتى متفرقة لا ألفة بينها ، يعنى أن بينهم إحنا وعداوات ، فلا يتعاضدون حق التعاضد ، ولا يرمون عن قوس واحدة , وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم قوم لا يعقلون أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم " [2]

فعلم من هذا أن التفرق والتشرذم من أهم أسباب الضعف والهزيمة أمام العدو , وحري بالمسلمين – كما أشار الزمخشري – أن يستفيدوا من هذه العظة والعبرة , لئلا يصيبهم ما أصاب من تفرق وفرط بوحدة صفه , التي هي أساس نجاته في الدنيا والآخرة .

---

[1] - متفق عليه : البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ، برقم 7307، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ، برقم 2673.

[2] - الكشاف : ج 4 ص 507 .

إن الناظر لما آل إليه حال المسلمين في زماننا من تكالب الأمم على المسلمين , وتعاونهم على حرب المسلمين وتقتيلهم وتشريدهم من ديارهم , ليجد نفسه في حيرة إزاء هذا الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون من تفرق وتمزق , على أساس أمور لم تبلغ عند سلفهم أن تكون محلا للنزاع والاختلاف .

ويحضرني هنا جزء من خطبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه , يقول فيها : " يا عجبا من أمر يميت القلوب ، ويجتلب الهم ويسعر الأحزان , من اجتماع القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، فبعدا لكم وسحقا ، قد صرتم غرضا ، ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله فترضون " [1]

فكيف لو أدرك - رضي الله عنه – زماننا , ورأى انشغال الناس بالملهيات , والمعاصي والمنكرات , وطلبة العلم بدقيق المسائل وعويص الخلافات , مع أن دفع العدو الصائل على بلاد المسلمين من بعد التوحيد أوجب الواجبات .

[1] - الدينوري , أحمد بن داود : الأخبار الطوال , ت : عبد المنعم عامر , دار إحياء الكتب العربي – القاهرة - , ط 1 , 1960 م , ج 1 ص 212 .

المطلب الثاني : عصمة النص والاحتكام إليه .

إن من أهم ما يحمي المسلمين من وقوع الافتراق , إيمانهم بأن العصمة ليست إلا للمشرع وحده , وأن نصوص الشرع وحدها التي تنبغي لها العصمة , وما عداها من كلام أئمة العلم - فضلا عن العوام – عرضة للخطأ , ولا يصلح لمعارضة النصوص بحال , بل إن النصوص هي الميزان التي يحكم من خلاله على صحة كلام أهل العلم .

ولقد تضافرت النصوص التي دعا فيها السلف رضوان الله عليهم إلى نبذ التعصب لأقوال العلماء , والتمسك بالنصوص , وترك ما خالفها , وسأعرض هنا جزءا من هذه النقول :

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لا أسوة في الشر " [1]

ويقول الإمام أحمد رحمه الله : " لا تقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا " [2]

وقال الأوزاعي: " عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول " [3]

وقال سحنون - من تلاميذ مالك - : " ما أدري ما هذا الرأي الذي سفكت به الدماء واستحلت به الفروج واستحقت به الحقوق " [4]

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله : " عادتنا في مسائل الدين كلها دقها وجلها أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض ولا نتعصب لطائفة على طائفة بل نوافق كل طائفة على ما

---

[1] - ابن عبد البر , أبو عمر يوسف بن عبد الله : جامع بيان العلم وفضله , تحقيق : أبو الأشبال الزهيري , دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية , ط 1 , 1414 هـ , ج 2 ص 987 .

[2] - مجموع فتاوى ابن تيمية : ج 20 ص 212 .

[3] - إعلام الموقعين : ج 1 ص 75 .

[4] - إعلام الموقعين : ج 1 ص 79 .

معها من الحق ونخالفها فيما معها من خلاف الحق. لا نستثنى من ذلك طائفة ولا مقالة، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك، ونموت عليه ونلقى الله به، ولا حول ولا قوة إلا بالله " [1]

من هذه النقول نرى أن اهتمام سلفنا الصالح كان منصبا على ربط الناس بالنصوص الشريف , وإسقاط هيبة كلام المخالف لها من القلوب , وفيها زجر للمتعلق بكلام متبوعيه إن خالف الكتاب والسنة , فإن ذلك نذير شر عظيم , و لا يلبث أن يعود على صاحبه وعلى الأمة بويلات و نكبات .

وإن من أعظم ما جرأ الناس على التعدي على النصوص , ما ابتليت به الأمة من تعصب الأتباع لمشايخهم وأعلام مذاهبهم , فحملهم ذلك على سيء الأفعال ورديء الأقوال , ولقد تنبه أهل العلم والفضل إلى هذه الآفة وحذروا منها .

أولا : ذم التعصب والمتعصبين

قال الحافظ ابن عبد البر الأندلسي معلقا على مسألة فقهية : " و هو أصل صحيح لمن ألهم رشده و لم تمل به العصبية إلى المعاندة " [2]

وقال ابن الجوزي رحمه الله : " اعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم فِي قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال , وهذا عين الضلال ؛ لأن النظر ينبغي أن يكون إِلَى القول لا إلى القائل , كما قال علي رضي الله عنه للحارث بن حوط وقد قال له : أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على باطل فقال له : يا حارث إنه ملبوس عليك , إن الحق لا يعرف بالرجال أعرف الحق تعرف أهله , وكان أحمد بن حنبل يقول : من ضيق علم الرجل أن يقلد في اعتقاده رجلا " [3]

[1] - ابن قيم الجوزية , محمد بن أبي بكر : طريق الهجرتين وباب السعادتين , الدار السلفية , مصر , ط 2 , 1394 هـ , ج 1 ص 393 .
[2] - ابن عبد البر , يوسف بن عبد الله , التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ت : مصطفى البكري ، وزارة الأوقاف ، المغرب , 1387 هـ ، ج 12 ص 203 .
[3] - ابن الجوزي , عبد الرحمن بن علي : تلبيس إبليس , دار الفكر , بيروت , ط 1 , 2001 م , ص 74 .

فالتعصب إذا هو اتباع قول الغير من دون إعمال النظر فيه , وذلك لأن الحق هو الذي يزكي الرجال ويرفع قدرهم لا العكس , والله تبارك وتعالى تعبد الإنسان بمعتقده , لا فيما قلد فيه الغير من دون نظر أو فكر .

وقد اجتمع العلماء قديما وحديثا على ذم التعصب والمتعصبين , وذلك حرصا منهم على تجنيب الأمة الآثار الوخيمة لهذه الآفة المهلكة .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : " التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس , وهو من آفات علماء السوء ؛ فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار, فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة , وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل , ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه , ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لنجحوا فيه , ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع , ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم , اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين , وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة " [1]

وقال رحمه الله : " ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعصب والخصومة تشدداً في بدعته " [2]

لقد تفطن الغزالي رحمه الله إلى أن من تبعات التعصب المقيتة ترسيخ العقائد الفاسدة في النفس , وذلك لأن المعتقد لها يعز عليه ترك قول متبوعه , فيعمد إلى الجدال والمنافحة عن معتقده , حتى وإن علم – أحيانا – أنه باطل , ولو أنه سلك سبيل عباد الله الصالحين لما تعصب لمخالف للشرع , مهما كانت منزلته أو مكانته عنده .

قال ابن تيمية رحمه الله : " ولا يجوز لأحد أن يرجح قولا على قول بغير دليل، ولا يتعصب لقول على قول ، ولا لقائل على قائل بغير حجة ، بل من كان مقلدا لزم حكم التقليد فلم يرجح ولم يزيف ، ولم يصوب ولم يخطئ ، ومن كان عنده من العلم والبيان ما يقوله سمع ذلك

---

[1] - الغزالي , أبو حامد محمد بن محمد : إحياء علوم الدين , دار المعرفة , بيروت , ج 1 ص 40 .

[2] - المرجع السابق : ج 3 ص 395 .

منه ، فقبل ما تبين أنه حق ، ورد ما تبين أنه باطل ، ووقف ما لم يتبين فيه أحد الأمرين ، والله تعالى قد فاوت بين الناس في قوى الأذهان كما فاوت بينهم في قوى الأبدان " [1]

وقال رحمه الله : " كثير من المشهورين بالمشيخة في هذه الأزمان قد يكون فيهم من الجهل والضلال والمعاصي والذنوب ما يمنع شهادة الناس لهم بذلك ؛ بل قد يكون فيهم المنافق والفاسق , كما أن فيهم من هو من أولياء الله المتقين وعباد الله الصالحين وحزب الله المفلحين , كما أن غير المشايخ فيهم هؤلاء - وهؤلاء في الجنة - كالتجار والفلاحين وغيرهم من الأصناف . وإذا كان كذلك ؛ فمن طلب أن يحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالا بل عليه أن يأخذ فيطلب بما يعلم أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده " [2]

وفي كلامه هنا توبيخ لمن تعصب لشيخه من دون نظر في مآل اتباعه وتعصبه له , وأن عليه أن يتحرى موالاة الصالحين من عباد الله , وأن يدعو الله أن يحشره معهم .

ثانيا : نماذج مشرقة

ولقد عرف تاريخنا نماذج مشرقة , نبذت التعصب , فلم تتخذ غير الحق والشرع ميزانا تزن به مواقفها وأقوالها , وحفظ التاريخ لها تلك المواقف عبرة وتعليما للخلف .

قال ابن الجوزي رحمه الله : " ولقد كان جماعة من المحققين لا يبالون بمعظم في النفوس إذا حاد عن الشريعة ، بل يوسعونه لومًا ، فنقل عن أحمد أنه قال له المروذي: ما تقول في النكاح ؟ فقال : سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال : فقد قال إبراهيم – ابن أدهم - قال : فصاح بي وقال: جئتنا ببنيات الطريق؟

وقيل له : إن سريا السقطي قال : لما خلق الله تعالى الحروف ، وقف الألف ، وسجدت الباء فقال : نفروا الناس عنه . [3]

واستطرد رحمه الله معلقا :

---

[1] - ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 35 ص 233 .

[2] - المرجع السابق : ج 18 ص 314 – 315 .

[3] - ابن الجوزي , صيد الخاطر , دار القلم , دمشق , ط 1 , 1425 هـ , ص 42 .

" واعلم أن المحقق لا يهوله اسم معظم ، كما قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على الباطل ؟ فقال له : إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله , ولعمري ؛ إنه قد وقر في النفوس تعظيم أقوام ، فإذا نقل عنهم شيء فسمعه جاهل بالشرع ، قبله لتعظيمهم في نفسه " [1]

فالتعصب عنده رحمه الله سبيل لقبول الآراء تبعا لقائلها , لا لموافقتها للشرع , وهذا خطأ عظيم , فإن أهل العلم إنما نالوا مكانتهم من خلال موافقته للشرع , ومتابعتهم له .

يقول ابن القيم رحمه الله : " فإن كل طائفة منها معها حق وباطل ، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق ورد ما قالوه من الباطل ، ومن فتح الله له بهذا الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب ، ويسّر عليه فيهما الأسباب " [2]

فالواجب على من تدبر هذا أن يعلم أن السلامة في الاحتكام إلى النص , وأن التبعية لأهل العلم ينبغي كذلك أن تبنى وفق ميزان النصوص الشرعية , دفعا لآفة التعصب المقيتة .

قال ابن تيمية رحمه الله :

" بل الأسماء التي يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، أو إلى شيخ كالقادري والعدوي ونحوهم , فلا يجوز لأحدٍ أن يمتحن الناس بها ، ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها ، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفةٍ كان ، وأولياء الله - الذين هم أولياؤه – هم الذين آمنوا وكانوا يتقون , (...) فكيف يجوز لأمة محمد بعد هذا أن تفترق وتختلف ، حتى يوالي طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى , بلا برهان من الله تعالى ، وقد برأ الله نبيه ممن كان هكذا ، فهذا فعل أهل البدع كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين ، واستحلوا دماء من خالفهم " [3] .

---

[1] - المرجع السابق : ص 42 – 43 .

[2] - ابن قيم الجوزية , طريق الهجرتين : ج 1 ص 387 .

[3] - ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 3 ص 415 وما بعدها بتصرف .

المطلب الثالث : الاجتهاد في الفروع يحتمل الخطأ ولا يستوجب الإثم

وهذا الضابط من أعظم ما يحول دون وقوع الأمة في التفرق والتمزق , وذلك أن الخلاف في الفروع لا يصل في حكمه إلى رتبة الخلاف حول الأصول , لذا فإنه لا ينبغي أن يبنى عليها حكم بإثم , فضلا عن التكفير .

أولا : كل مجتهد مأجور

وقد نص الحديث الشريف على رفع الإثم عن المجتهد الذي يبذل وسعه في تحري الصواب , والوصول إلى ما يوافق مراد الشارع , قال صلى الله عليه وسلم : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم اخطأ فله أجر " [1]

قال ابن حجر: " ولا يؤاخذ بإعطاء الحق لغير مستحقه لأنه لم يتعمد ذلك ، بل وزر المحكوم له قاصر عليه , ولا يخفى أن محل ذلك أن يبذل وسعه في الاجتهاد وهو من أهله , وإلا فقد يلحق به الوزر إن أخل بذلك " [2]

إذا ؛ فالاجتهاد وبذل الوسع في تحري الصواب هو السبيل إلى نجاة المجتهد من الإثم , وليس معنى ذلك أنه يتوجب عليه إدراك الصواب في كل مسألة , لأن ذلك غير ممكن , قال ابن حزم رحمه الله : **"** لم يأمر الله قط بإصابة الحق ، لأنه تكليف ما ليس بوسعه " [3]

أما الأجر فقد ناله المجتهد ثوابا لبذله الوسع , واستقرائه الأدلة , ودراستها و إعمال النظر فيها , فالخطأ في حالته هذه غير مقصود فضلا عن أن يكون متعمدا .

قال الخطيب البغدادي : " فإن قيل: كيف يجوز أن يكون للمخطئ فيما أخطأ فيه أجر، وهو إلى أن يكون عليه في ذلك إثم لتوانيه وتفريطه في الاجتهاد حتى أخطأ ؟ فالجواب : إن هذا غلط ،

---

[1] - رواه مسلم , كتاب الأقضية , باب إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران , برقم : 1716 .

[2] - ابن حجر , أحمد بن علي : فتح الباري شرح صحيح البخاري : ج 13 ص 320 .

[3] - ابن حزم , علي بن أحمد : الإحكام في أصول الأحكام , ت : الشيخ أحمد محمد شاكر , دار الآفاق الجديدة ، بيروت , ج 2 ص 652 .

لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يجعل للمخطئ أجرا على خطئه، وإنما جعل له أجرا على اجتهاده ، وعفا عن خطئه ، لأنه لم يقصده " [1]

وقال الآمدي رحمه الله : " وحجة أهل الحق في ذلك – يعني عدم تأثيم المجتهد المخطئ - ما نقل نقلا متواترا لا يدخله ريبة ولا شك ، وعلم علما ضروريا من اختلاف الصحابة فيما بينهم في المسائل الفقهية ، كما بيناه فيما سبق , مع استمرارهم على الاختلاف إلى انقراض عصرهم ، ولم يصدر من أحد منهم نكير ولا تأثيم لأحد ، لا على سبيل الإبهام ولا التعيين ، مع علمنا بأنه لو خالف أحد في وجوب العبادات الخمس و تحريم الزنا والقتل لبادروا إلى تخطئته و تأثيمه , فلو كانت المسائل الاجتهادية نازلة منزلة هذه المسائل في كونها قطعية و مأثوما على المخالفة فيها ; لبالغوا في الإنكار والتأثيم حسب مبالغتهم في الإنكار على من خالف في وجوب العبادات الخمس وفي تأثيمه ; لاستحالة تواطئهم على الخطأ، ودلالة النصوص النازلة منزلة التواتر على عصمتهم عنه ، كما سبق تقريره في مسائل الإجماع " [2]

هنا نرى الآمدي يضيف ضابطا آخر وهو أن يكون الاجتهاد سائغا , أي في غير ما هو معلوم من الدين بالضرورة , لأن ذلك مقطوع بالإثم للخائض فيه تغييرا وتبديلا , إن لم يفضي به ذلك إلى الكفر , ويقاس على ذلك في باب عذر المجتهد , الاجتهاد في مسائل فروع الاعتقاد , التي ليس عليها نص قطعي واضح الدلالة , فإن المجتهد فيها إذا سلم من سوء القصد , فإنه مأجور على اجتهاده .

ثانيا : المجتهد المخطئ معذور

إن المجتهد متى بذل وسعه في إدراك الصواب , فإنه لا يملك احد تأثيمه , وتخطئته لا يلزم منها أنه آثم , إلا إذا تبين له الصواب فعدل عنه , وأصر على خطئه و دعا إليه , عندها يجب الإنكار عليه , و نصحه وتحذيره من الإثم .

---

[1] - الخطيب البغدادي , أحمد بن علي , الفقيه والمتفقه , أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي , دار ابن الجوزي , السعودية , ط 2 , 1421 هـ , ج 1 ص 475 .

[2] - الآمدي , علي بن أبي علي : الإحكام في أصول الأحكام , ت : عبد الرزاق عفيفي , المكتب الإسلامي ، بيروت , ج 4 ص 182 .

قال ابن تيمية رحمه الله : " وأما ما اجتهدوا فيه : فتارة يصيبون ، وتارة يخطئون , فإذا اجتهدوا فأصابوا فلهم أجران ، وإذا اجتهدوا وأخطئوا فلهم أجر على اجتهادهم ، وخطؤهم مغفور لهم , وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازمين ، فتارة يغلون فيهم و يقولون إنهم معصومون ، وتارة يجفون عنهم ويقولون إنهم باغون بالخطأ ، وأهل العلم والإيمان لا يعصمون ولا يؤثمون ، ومن هذا الباب تولد كثير من فرق أهل البدع والضلال " [1]

وقال رحمه الله : " هذا قول السلف وأئمة الفتوى كأبي حنيفة والشافعي، والثوري، وداود بن على وغيرهم، لا يؤثمون مجتهداً مخطئاً في المسائل الأصولية ولا في الفرعية. كما ذكر ذلك عنهم ابن حزم وغيره، وقالوا : هذا هو القول المعروف عن الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الدين ، أنهم لا يكفرون ولا يفسقون ولا يؤثمون أحداً من المجتهدين المخطئين ، لا في مسألة عملية ولا علمية " [2]

ومما يعذر به المجتهد المخطئ أن يكون غاب عنه الدليل في المسألة التي اجتهد فيها , وقد اجتهد ابن تيمية رحمه الله في تقرير هذه المسألة اجتهادا يحمد عليه , أنقل موضع من كلامه لأهميته .

يقول رحمه الله : " ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة ، وإن كان ذلك في المسائل العلمية ، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة " [3]

وقال رحمه الله : " ليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا ، فإن المنازع قد يكون مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة ، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته " [4]

---

[1] - مجموع الفتاوى : ج 35 ص 69 .
[2] - المصدر السابق : ج 19 ص 207 .
[3] - المصدر السابق : ج 20 ص 165 .
[4] - المصدر السابق : ج 24 ص 242 .

ويقول : " وحقيقة الأمر: أنه إذا كان فيها - أي المسألة - نص خفي على بعض المجتهدين ، وتعذر عليه علمه ، ولو علمه لوجب عليه اتباعه ، لكنه لما خفي عليه اتبع النص الآخر , والمجتهد المخطئ له أجر؛ لأن قصده الحق وطلبه بحسب وسعه ، وهو لا يحكم إلا بدليل ففي الجملة : الأجر هو على اتباعه الحق بحسب اجتهاده ، ولو كان في الباطن حق يناقضه هو أولى بالاتباع لو قدر على معرفته لكنه لم يقدر " [1]

ويقول : " إذا رأيت المقالة المخطئة قد صدرت من إمام قديم فاغتفرت لعدم بلوغ الحجة له فلا يغتفر لمن بلغته الحجة ما اغتفر للأول ، فلهذا يبدع من بلغته أحاديث عذاب القبر ونحوها إذا أنكر ذلك، ولا تبدع عائشة ونحوها ممن لم يعرف بأن الموتى يسمعون في قبورهم فهذا أصل عظيم فتدبره فإنه نافع " [2] .

وحاصل كلامه رحمه الله أن المسلم ينبغي أن يبذل الوسع في إيجاد العذر للمجتهد المخالف للصواب , متى سلم هذا المجتهد من المعاندة والإصرار على الخطأ إذا تبين له الصواب , فذلك – إن شاء الله – سبيل إلى تأليف القلوب , وجمع المسلمين على محبة العلماء وتوقيرهم , وإنزالهم منزلتهم التي يستحقون .

ثالثا : الخطأ لا يحط منزلة العالم

لقد أنزل ديننا العلماء منزلة عظيمة , وأولاهم قدرا عظيما , ودعا إلى احترامهم وتوقيرهم , ومعرفة حقهم , وقد وردت آيات وأحاديث في هذا الشأن , قال تعالى : " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم " (آل عمران : 18)

قال القرطبي : " في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته كما قرن العلماء " [3]

---

[1] - مجموع الفتاوى : ج 20 ص 25 – 30 بتصرف .
[2] - المصدر السابق : ج 6 ص 61 .
[3] - الجامع لأحكام القرآن : ج 4 ص 41 .

وقال : { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات } [الحجرات : 11]
قال الطبري رحمه الله : " ويرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين، الذين لم يؤتوا العلم بفضل علمهم درجات، إذا عملوا بما أمروا به " [1]

ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله " [2]

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان ؛ أحدهما عابد والآخر عالم , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم , ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير " [3]

قال ابن تيمية رحمه الله : " وبعد ؛ فيجب على المسلمين - بعد موالاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم - موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن , خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم , يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر , وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم .
إذ كل أمة - قبل مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - فعلماؤها شرارها [4] , إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم ؛ فإنهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته , والمحيون لما مات من سنته. بهم قام الكتاب , و به قاموا, وبهم نطق الكتاب و به نطقوا " [5]

---

[1] - جامع البيان : ج 23 ص 246 .
[2] - رواه البخاري , كتاب العلم , باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين , برقم : 71 .
[3] - رواه الترمذي , كتاب العلم , باب فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم , برقم : 2685 , صححه الألباني (صحيح الجامع : 1838)
[4] - لعله أراد رحمه الله علماؤها الذين بدلوا وحرفوا , وإلا فإن الإطلاق غير مسلم .
[5] - ابن تيمية , أحمد بن عبد الحليم : رفع الملام عن الأئمة الأعلام , الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، السعودية , 1403 هـ , ص 8 .

إن الواجب على المسلم إزاء هذه المنزلة العظيمة للعلماء أن يعرف لهم قدرهم , وأن يحفظ لهم مكانتهم , وأن يواليهم بقدر موالاتهم لله ورسوله , ما لم يرى منهم ما ينقض هذا الضابط الذي حفظ لهم تلك المنزلة .

وإن مما يعين على التجاوز عن زلة العالم , أن نستحضر ما له من سابقة علم وفضل , وإلى هذا ذهب أهل العلم , وسآتي على ذكر بعض ما نقل عنهم في ذلك :

قال سعيد بن المسيب رحمه الله : " ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل ، إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه ، ومن كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله " [1]

وقال ابن قيم الجوزية : " من قواعد الشرع والحكمة أيضا ؛ أن من كثرت حسناته وعظمت ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر؛ فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه مالا يعفى عن غيره ؛ فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل ؛ فإنه يحمل أدنى خبث **,** ومن هذا قول النبي لعمر : وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم [2] " [3]

وهنا التفاتة لطيفة منه رحمه الله , وهي قياس الأمر على مغفرة الله لأهل بدر , لأن شهودهم الغزوة أعظم مما يمكن أن يبدر منهم من خطأ , وكذلك فإن بلاء كثير من علماء المسلمين في خدمة الإسلام , لعله كون أعظم من الخطأ الذي أخطؤوه .

رابعا : الموقف من أخطاء العلماء

لو أن كل عالم زل أو أخطأ جاز لنا أن نجعله غرضا لنقدنا وتجريحنا وهجرنا , لما سلم لنا عالم واحد نتبعه , فإن العلماء يعتريهم النقص والضعف والخلل والخطأ , شأنهم شأن بقية البشر , فوجب علينا أن لا نتجاوز بأخطائهم وزلاتهم قدرها الذي لها , وأن نحفظ حبهم وموالاتهم في قلوبنا ماداموا حفظوا ولاءهم لله ورسوله .

---

[1] - ابن عبد البر , التمهيد : ج 11 ص 170

[2] - رواه البخاري , كتاب الجهاد والسير , باب الجاسوس , برقم :2845 .

[3] - مفتاح دار السعادة : ج 1 ص 176

لقد كثرت إشارات العلماء إلى هذا المعنى النفيس , ولأهميته في تأكيد المراد من هذا المبحث فإني سأنقل طائفة من أقوالهم , والمواقف التي جرت بينهم ترجمة لهذا المبدأ الكريم السامي .

يقول ابن عساكر رحمه الله : " واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم ، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم " [1]

" كتب أستاذ البلغاء ، القاضي الفاضل : عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني معتذرا عن كلام استدركه عليه : إنه قد وقع لي شيء ، وما أدري أوقع لك أم لا ؟ وها أنا أخبرك به ، وذلك أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه ، إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جلة البشر " [2]

ولنتأمل أدبه – رحمه الله – في مخاطبة عالم مثله , ولنتأمل تودده إليه وهو يشير إلى بعض أخطائه , بل واعتذاره عن ذلك .

وعند الذهبي في السير " قال أبو الحسن الصفار: سمعت أبا سهل الصعلوكي - وسئل عن تفسير أبي بكر القفال - فقال : قدسه من وجه ، ودنسه من وجه ، أي دنسه من جهة نصر الاعتزال.

---

[1] - ابن عساكر , علي بن الحسن : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري , دار الكتاب العربي , بيروت , ط 3 , 1404 هـ , ص 29 .

[2] - حاجي خليفة , مصطفى بن عبد الله : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون , مكتبة المثنى , بغداد , 1941 م , ج 1 ص 14

قلت : قد مر موته ، والكمال عزيز , وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل ، فلا تدفن المحاسن لورطة ، ولعله رجع عنها ، وقد يغفر له في استفراغه الوسع في طلب الحق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " [1]

وهنا إشارة إلى أن حفظ مكانة أهل العلم لا يجرحها ذكر ما عليه من مآخذ , وذلك ليحذر الناس منها , فيتبعوه في ما نقل عنه دونها .

ومن كلام ابن قيم الجوزية قوله : " شيخ الإسلام [2] حبيبنا ، ولكن الحق أحب إلينا منه ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : عمله خير من علمه ، وصدق رحمه الله ، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أهل البدع ، لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله ، وأبى الله أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم ، وقد أخطأ في هذا الباب لفظا ومعنى " [3]

وقال رحمه الله :

" من له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد يكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل مأجور لاجتهاده فلا يجوز أن يتبع فيها ولا يجوز أن تهدر مكانته ومنزلته في قلوب المسلمين " [4]

قال الأمير الصنعاني رحمه الله : " وليس أحد من أفراد العلماء إلا وله نادرة ينبغي أن تغمر في جنب فضله وتجتنب " [5]

ولقد تعرض تاج الدين بن تقي الدين السبكي رحمه الله إلى هذه المسألة في كتابه " قاعدة في الجرح والتعديل " فقال رحمه الله : " الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته وكثر

---

[1] - الذهبي , محمد بن أحمد : سير أعلام النبلاء , مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط , مؤسسة الرسالة , ط 3 , 1405 م , ج 16 ص 285 .

[2] - يقصد أبا إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: 481هـ) صاحب منازل السائرين .

[3] - ابن قيم الجوزية , محمد بن أبي بكر, مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين , ت : محمد المعتصم بالله البغدادي , دار الكتاب العربي , بيروت , ط 3 , 1416 هـ , ج 3 ص 366 .

[4] - أعلام الموقعين : ج 3 ص 295 .

[5] - الصنعاني , محمد بن إسماعيل : سبل السلام , دار الحديث , ج 1 ص 251 .

مادحوه ومزكوه وندر جارحوه وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو غيره فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة وإلا فلو فتحنا هذا الباب وأخذنا بتقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد " [1]

وقال رحمه الله ناصحا طالب العلم : " ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة , الماضين وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح , ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن دونك , وإلا فاضرب صفحا عما جرى بينهم , فانك لم تخلق لهذا فاشتغل بما يعنيك ودع ما لا يعنيك , ولا يزال طالب العلم عندي نبيلا حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض (...) فإنك إذا اشتغلت بذلك خشيت عليك الهلاك , فالقوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل وربما لم يفهم بعضها فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوت عما جرى بينهم كما نفعل فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين " [2]

وترد هنا لفتة طريفة لابن حجر العسقلاني رحمه الله استنبطها من حديث خبر الحديبية الذي رواه البخاري , ومنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سار " حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها ، بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل ، فألحت فقالوا : خلأت القصواء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل " [3]

قال ابن حجر رحمه الله : " جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته ، وإن جاز أن يطرأ غيره ، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها ، لا ينسب إليها ، ويرد على من نسبه إليها ، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله ؛ لأن خلأ القصواء لولا خارق العادة لكان ما ظنه الصحابة صحيحا ، ولم يعاتبهم النبي على ذلك لعذرهم في ظنهم " [4]

---

[1] - السبكي , عبد الوهاب : قاعدة في الجرح والتعديل , ت : عبد الفتاح أبو غدة , دار البشائر , بيروت , ط 5 , 1410 هـ , ص 19 .

[2] - المرجع السابق : 59 – 65 .

[3] - الحديث بتمامه في : البخاري , كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط , برقم : 2583 .

[4] - فتح الباري : ج 5 ص 335 .

وقال ابن قيم الجوزية كذلك في هذا المعنى : " والكلمة الواحدة يقولها اثنان ، يريد بها أحدهما : أعظم الباطل ، ويريد بها الآخر محض الحق ، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه ، وما يدعو إليه ويناظر عليه " [1]

وأختم بنقل نفيس سطره الذهبي رحمه الله بقوله : "غلاة المعتزلة ، وغلاة الشيعة ، وغلاة الحنابلة ، وغلاة الأشاعرة ، وغلاة المرجئة ، وغلاة الجهمية ، وغلاة الكرامية قد ماجت بهم الدنيا وكثروا ، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء ، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد ، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع ، ونحب السنة وأهلها ، ونحب العالم على ما فيه من الإتباع والصفات الحميدة ، ولا نحب ما اتبع فيه بتأويل سائغ " [2] .

---

[1] - مدارج السالكين : ج 3 ص 481 .

[2] - سير أعلام النبلاء : ج 20 ص 45 – 46 .

المطلب الرابع : الالتزام بضوابط معاملة المخالف

قال تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاس أَجْمَعِينَ (119) } [هود]

جاء في تفسير هذه الآيات عن مجاهد قال : " قوله : (ولا يزالون مختلفين) قال : أهل الحق وأهل الباطل . (إلا من رحم ربك) قال : أهل الحق " [1]

وقال الزمخشري معللا هذا الاختلاف : " يعني : ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم ، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره " [2]

واعتبر البيضاوي هاتين الآيتين " دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعه (وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ) بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقا " [3]

وعن المراد بالخلاف المشار إليه في الآيات يقول ابن عاشور : " وفهم من هذا أن الاختلاف المذموم المحذر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يَتَرَتَّبُ عليه اعتبار المخالف خارجا عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه ، فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة ، فإن لم ينجع ذلك فبالقتال كما فعل أبو بكر في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة ، وكما فعل علي كرم الله وجهه في قتال الحرورية الذين كفروا المسلمين , وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف " [4]

---

[1] - الطبري , جامع البيان : ج 15 ص 533 .

[2] - الزمخشري , محمود بن عمرو : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل , دار الكتاب العربي , بيروت , 1407 هـ , ج 2 ص 438 .

[3] - البيضاوي , عبد الله بن عمر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل , ت : محمد عبد الرحمن المرعشلي , دار إحياء التراث العربي , بيروت , ط 1 , 1418 هـ , ج 3 ص 152 .

[4] - ابن عاشور , محمد الطاهر بن محمد , التحرير والتنوير , الدار التونسية للنشر , 1984 م , ج 12 ص 189 .

مما سبق يتبين لنا أن على المسلم أن يتعاطى مع موضوع الخلاف على أنه أمر طبعي , جبل الإنسان عليه , ومرجعه تفاوت الناس في المدارك والعقول وتعارض الأدلة أو غياب بعضها , فكيف لو جمعنا إلى ذلك نوازع النفس الأمارة بالسوء , مع التعصب للشيخ والطائفة , إضافة إلى وسوسة إبليس وسعيه في تضليل العباد وتفريقهم وتشتيت كلمتهم .

أولا : الخلاف لا يفسد الود

وذلك لأن الاختلاف في الأحكام " أكثر من أن ينضبط ، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة ، ولقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان إلا الخير ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم بني قريظة : لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ، فأدركتهم العصر في الطريق , فقال قوم : لا نصلي إلا في بني قريظة ففاتهم العصر ، وقال قوم : لم يرد منا تأخير الصلاة فصلوا في الطريق ، فلم يعب واحدا من الطائفتين , وهذا وإن كان في الأحكام فما لم يكن في الأصول المهمة فهو ملحق بالأحكام " [1]

وإشارته رحمه الله إلى أن ما لم يكن في الأصول المهمة ملحق بالأحكام هو ما يعنينا في بحثنا العقدي هنا , أي أن الخلاف في فروع الاعتقاد يحمل على الحالة التي ذكرها , من دوام الود والترفع عن الشقاق والنزاع والخلاف .

وقد كان هذا شأن الصحابة الكرام , الذين وقع بينهم الخلاف في بعض مسائل العلم , ولم يحفظ لنا التاريخ أن أحدهم وقع في الآخر أو تكلم فيه , أو أن نزاعا حصل بسبب مثل هذا النوع من الاختلافات .

" كانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة و مناصحة ، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية ، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين ، نعم من خالف الكتاب

[1] - مجموع الفتاوى : ج 24 ص 174 .

المستبين ، والسنة المستفيضة ، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعذر فيه ، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع " [1]

وقال قوام السنة الأصبهاني رحمه الله " فإنا وجدنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في أحكام الدين فلم يفترقوا، ولم يصيروا شيعا لأنهم لم يفارقوا الدين، ونظروا فيما أذن لهم، فاختلفت أقوالهم وآراؤهم في مسائل كثيرة (...) فصاروا باختلافهم في هذه الأشياء محمودين ، وكان هذا النوع من الاختلاف رحمة من الله لهذه الآمة حيث أيدهم باليقين ، ثم وسع على العلماء النظر فيما لم يجدوا حكمه في التنزيل والسنة ، وكانوا مع هذا الاختلاف أهل مودة ونصح، وبقيت بينهم أخوة الإسلام ولم ينقطع عنهم نظام الألفة " [2]

فخلاف السلف إذا إنما كان يعتري أقوالهم وآراءهم , ولم يكن في قلوبهم شيء من آثاره ولا عواقبه , بل لقد كانت الأخوة الإيمانية تتجلى في كل مواقف حياتهم , مهما بلغت درجة الاختلاف بينهم في جزئيات المسائل العلمية أو العملية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصحابة الكرام لم يختلفوا في مسألة من مسائل العقيدة , بل كانوا يسلمون بما تأتي النصوص , وإنما نشأ اختلافهم من جهة بلوغ النص أحدهم دون الآخر , أو من جهة ثبوت النص من عدمه .

ومع وقوع مثل هذا الخلاف عند السلف الكرام , إلا أنه " لم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية " [3]

قال ابن الجوزي رحمه الله : " أن المجادلة إنما وضعت ليستبين الصواب , وقد كان مقصود السلف المناصحة بإظهار الحق , وقد كانوا ينتقلون من دليل إلى دليل وإذا خفي على أحدهم شيء نبهه الآخر لأن المقصود كان إظهار الحق " [4]

---

[1] - مجموع الفتاوى : ج 24 ص 172 – 173 .
[2] - الأصبهاني , إسماعيل بن محمد : الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة , ت : محمد المدخلي , دار الراية , السعودية , ط 2 , 1419 هـ , ج 2 ص 242 .
[3] - المرجع السابق : ج 3 ص 229 .
[4] - تلبيس إبليس : ص 146 .

وحري بنا أن نشير إلى أن هذا التآلف إنما كان بين السلف وأمة الإسلام في أبهى وأجلى عصورها , فرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته بين ظهرانيهم , وأعداء الإسلام أذلهم الله ومنح المسلمين أكتافهم , فكيف يسوغ لنا أن نحيد عن هذا الواقع المشرق ونحن في زمن تكالبت فيه علينا الأمم , ونحن أحوج فيه إلى ما يرص الصفوف ويلم الشمل , ويوحد الكلمة .

ثانيا : التماس العذر للمخطئ لا يسوغ قبول خطئه

وهذا من الأبواب التي زل فيها كثيرون , ممن جعلوا إحسان الظن بالعالم و التماس العذر له في زلته سببا لقبولها والعمل بها , و هذا فيه مجانبة واضحة للصواب , فالعالم وإن كان زل بحسن نية , ولاجتهاد منه لم يوفق فيه للصواب ويؤجر عليه , إلا أن هذا ليس مستندا لقبول زلته واعتمادها والعمل بها .

فالواجب إذا أن لا يحملنا قدر العالم ومكانته على قبول رأيه من دون إعمال النظر فيه , وهذا لا يتعارض مع الإنصاف , الذي هو أبهى حلل طالب العلم وأخلاقه .

قال الشوكاني رحمه الله : " ومن حق الإنصاف ولازم الاجتهاد أن لا يحسن الظن أو يسيئه بفرد من أفراد أهل العلم على وجه يوجب قبول ما جاء به أو رده من غير إعمال فكر وإمعان نظر وكشف وبحث فإن هذا شأن المقلدين وصنيع المتعصبين وإن غرته نفسه بأنه من المنصفين وأن لا يغتر بالكثرة فإن المجتهد هو الذي لا ينظر إلى من قال بل إلى ما قال فإن وجد نفسه تنازعه إلى الدخول في قول الأكثرين والخروج عن قول الأقلين أو إلى متابعة من له جلالة قدر ونبالة ذكر وسعة دائرة علم لا لأمر سوى ذلك فيعلم أنه قد بقي فيه عرق من عروق العصبية وشعبة من شعب التقليد وأنه لم يوف الاجتهاد حقه " [1]

وإلى هذا المعنى ذهب ابن تيمية رحمه الله بقوله : " ومما يتعلق بهذا المعنى أن يُعلَم أن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة أهل البيت وغيرهم ، قد يحصل منه نوعٌ من الاجتهاد مقروناً بالظن ونوعٍ من الهوى الخفي ، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتقين , ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة

[1] - الشوكاني , محمد بن علي : أدب الطلب ومنتهى الأدب , ت : عبد الله يحيى السريحي , دار ابن حزم , بيروت , ط 1 , 1419هـ , ص 154 .

لطائفتين : طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه ، وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه ، بل في بره وكونه من أهل الجنة ، بل في إيمانه حتى تخرجه من الإيمان ، وكلا هذين الطرفين فاسد والخوارج والروافض وغيرهم من ذوي الأهواء دخل عليهم الداخل من هذا , ومن سلك طريق الاعتدال عظّم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه ، وأعطى الحق حقه فيعظم الحق ويرحم الخلق " [1]

ثالثا : كلام الأقران يطوى ولا يروى

الأقران لغة : جمع قرن – بكسر القاف – وهو الكفء والنظير في الشجاعة والحرب ، وفي حديث ثابت بن قيس : " بئسما عودتم أقرانكم " أي : نظراءكم ، وأكفاءكم في القتال . [2]

واصطلاحا : قال الإمام الحاكم : إنما القرينان إذا تقارب سنهما وإسنادهما [3]

لا زال أهل العلم يأنفون من قبول جرح القرين في قرينه , ويرجعون ذلك إلى الحسد , غير أن ذلك لا يمنع من الأخذ إذا كان مفسرا , ومعه ما يؤيده من أدلة , غير أن الغالب عليه أنه من قبيل الحسد والغيرة .

قال ابن عباس : " استمعوا علم العلماء ، ولا تُصدِّقوا بعضهم على بعض ، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايراً من التيوس في زربها " [4]

قال الذهبي : " لا يعتد غالباً بكلام الأقران إذا كان بينهما منافسة " [5] وقال أيضا : " كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به ، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوة ، أو لمذهب ، أو لحسد ، وما ينجو منه إلا من عصمه الله ، وما علمت أن عصرا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين ، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس ، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين

---

[1] - مجموع الفتاوى : ج 4 ص 543 .
[1] - لسان العرب : ج 11 ص 140 .
[3] - الحاكم , محمد بن عبد الله : معرفة علوم الحديث , مجلس دائرة المعارف العثمانية , حيدر آباد – الهند - , 1401 هـ , ج 1 ص 215 .
[4] - ابن عبد البر , جامع بيان العلم وفضله : ص 435 .
[5] - سير أعلام النبلاء : ج 14 ص 42 .

آمنوا ربنا إنك رؤوفٌ رحيم " [1] وقال رحمه الله : " كلام الأقران يُطوى ولا يُروى ، فإن ذكر تأمله المحدث فإن وجد له متابعاً وإلا أعرض عنه " [2]

ولم تخل كتب السلف من أمثلة رد العلماء لكلام الأقران , إنصافا واعترافا بفضل المتكلم فيه , ومنها سأذكر بعض الأمثلة .

قال الذهبي في ترجمة المحدث محمد بن عبد الله ابن سليمان الملقب بمُطيَّن : " تكلم فيه محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، وتكلم هو في ابن عثمان ، فلا يُعتدُّ غالباً بكلام الأقران ، لا سيَّما إذا كان بينهما منافسة ، فقد عدَّد ابن عثمان لمُطيَّن نحواً من ثلاثة أوهام ، فكان ماذا ؟ ومطيَّن أوثق الرجلين ، ويكفيه تزكية مثل الدارقطني له ، فقد سئل عنه الدارقطني فقال : ثقةٌ جبل " [3]

قال الذهبي في ترجمة أبى الزناد عبد الله بن ذكوان : " قال ربيعة فيه : ليس بثقةٍ ولا رضي . قال : ولا يُسمع قول ربيعة فيه ، فإنه كان بينهما عداوة ظاهرة " [4]

وقال رحمه الله : " أما كلام النسائي في أحمد بن صالح فكلام موتور لأنه آذى النسائي وطرده من مجلسه فقال فيه : ليس بثقة " [5]

" قال محمد بن مفلح : ولم ينج كثير من الناس من كلام بعض الناس فيهم نحو ما يُذكر عن إبراهيم من كلامه في الشعبي ، وكلام الشعبي في عكرمة وفيمن كان قبلهم ، وتناول بعضهم في العرض والنفس " [6]

وقال التاج السبكي : " ومما ينبغي أن يُتفقَّد عند الجرح : حال العقائد واختلافها بالنسبة إلى الجارح والمجروح ، فربما خالف الجارح المجروح في العقيدة فجرحه لذلك ، وإليه أشار الرافعي بقوله : وينبغي أن يكون المزكُون برآء من الشحناء والعصبية في المذهب خوفاً من أن

---

[1] - الذهبي , محمد بن إسماعيل : ميزان الاعتدال في نقد الرجال , ت : علي معوض وعادل عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، ط 1 , 1995 م , ج 1 ص 111 .
[2] - سير أعلام النبلاء : ج 5 ص 275 .
[3] - سير أعلام النبلاء : ج 14 ص 42 .
[4] - ميزان الاعتدال : ج 2 ص 36 .
[5] - سير أعلام النبلاء : ج 11 ص 83 .
[6] - المرجع السابق : ج 7 ص 40 .

يحملهم ذلك على جرح عدل ، أو تزكية فاسق ، وقد وقع هذا لكثير من الأئمة جرحوا بناءاً على معتقدهم وهم المخطئون والمجروح مصيب " [1]

وقال رحمه الله : " قد استقرأت فلم أجد مؤرخا ينتحل عقيدة ويخلو كتابه عن الغمز ممن يحيد عنها ، سنة الله في المؤرخين ، وعادته في النقل ، ولا حول ولا قوة إلا بحبله المتين " [2]

وهذه إشارة منه رحمه إلى إحدى أعظم ما ابتلينا به , من تحزب المصنف في العقائد , وتعصبه لطائفة دون أخرى , فيختل بذلك ميزان الإنصاف عنده , ولئن كان هذا حال المتقدمين , فحال المتأخرين للمعاين أشد وأنكى , ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال ابن عبد البر ملخصا الموقف من كلام الأقران : " هذا باب قد غلط فيه كثير من الناس وضلت به نابتة جاهلة لا تدري ما عليها في ذلك ، والصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته , وثبتت في العلم أمانته , وبانت ثقته وعنايته بالعلم , لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببينة عادلة تصح بها جرحته على طريق الشهادات والعمل فيها من المشاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب قوله من جهة الفقه والنظر، وأما من لم تثبت إمامته , ولا عرفت عدالته , ولا صحت لعدم الحفظ والإتقان روايته , فإنه ينظر فيه إلى ما اتفق أهل العلم عليه ويجتهد في قبول ما جاء به على حسب ما يؤدي النظر إليه " [3]

ولنا هنا وقفة عزيزة , فإذا كان السلف قد ردوا كلام أمثال هؤلاء الجبال في العلم في بعضهم , فما بال أصاغر طلبة العلم اليوم يقعون في عز الأمة من علمائها وكبرائها بحجة الاختلاف في المذهب والمشرب , من دون اعتبار لكلام أهل العلم في توثيقهم وإثبات عدالتهم , أولى بصاحب هذا الخلق الذميم أن يعرف قدر نفسه , وأن يعكف على طلب العلم من مظانه , وأن ينشغل بما يفيد الأمة , ويرفع الغمة .

[1] - قاعدة في الجرح والتعديل ص35 .

[2] - السبكي , عبد الوهاب : طبقات الشافعية الكبرى ، طبعة مصطفى الحلبي , 1382 هـ , ج 4 ص 162 .

[3] - جامع بيان العلم وفضله ص 186 .

الفصل الرابع

آثار الافتراق العقدي

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أثر الافتراق العقدي على الواقع السياسي

المبحث الثاني : أثر الافتراق العقدي على الواقع العلمي والدعوي

المبحث الأول : أثر الافتراق العقدي على الواقع السياسي

لقد كان للافتراق العقدي آثار مريرة على الواقع السياسي للمسلمين , وتنوعت هذه الآثار بين ظهور دول اتخذت آراء فرقة عقدية مذهبا لها , إلى ظهور الفتن والحروب التي قامت على أساس مذهبي عقدي , وتسبب هذا في ضعف الأمة وتمزق صفها , وذهاب ريحها في فترات من التاريخ , تعود بعد رحمة الله لها إلى الالتئام والاجتماع , والانتصاف من عدوها , وسأتعرض في هذا المبحث إلى تناول أهم هذه الآثار بالبحث , وذلك من خلال سرد وقائع تاريخية , تشهد لظهور هذا الأثر وما فعله في الأمة .

المطلب الأول : الاستقواء بالسلطة في الخلاف العقدي

لم تنقطع محاولات أصحاب المذاهب - على اختلافها - للوصول إلى السلطة السياسية التي تحمي المذهب , وتصون أتباعه وتزيدهم ؛ من خلال فرض هذه الآراء على المسلمين بقوة السلطة , وليس القصد السيئ لدى الخلفاء أو الأمراء حاضر دائما , فإن كثيرا منهم عمدوا إلى تبني مذهب عقدي لما يرونه فيه من الصواب , وأنه أحق وأجدر بأن يحمل الناس عليه .

ولقد تنبه السلف الصالح إلى خطورة تأثير الافتراق العقدي على الحالة السياسية , فهذا أحمد بن حنبل رحمه الله يأبى بشدة وينكر على من أتوه يستأذنوه في الخروج على المأمون – وقد لقي رحمه الله منه ما لقي - ويقول لهم " سبحان الله ، الدماء ، الدماء ، لا أرى ذلك ، ولا آمر به ، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء ، ويستباح فيها الأموال ، وينتهك فيها المحارم " [1]

وهذا من عظيم فقهه رحمه الله , فالفتنة التي تتأتي على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم , لا بد من دفعها , وإن كان على حساب فتنة أخف ضررا منها , فهل يعي طلبة العلم اليوم هذا الدرس , فيؤثرون العمل على تضميد جراح الأمة , وقف نزيف الدم فيها , ورد عادية الصائل على الأنفس والأموال والأعراض , على ما بينهم من خلافات ونزاعات انتصارا لمذاهبهم العقدية .

---

[1] - الخلال , أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون (ت 311 هـ) : السنة , ت : عطية الزهراني , دار الراية , الرياض , ط 1 , 1410هـ , ج 1 ص 132 .

وقد حفلت كتب التاريخ والسير بنماذج لتوظيف السياسة والسلطة السياسية في الخلاف العقدي , وسآتي على ذكر بعضها فيما سيأتي .

أولا : مذاهب الخلفاء

لقد وقع الاختلاف في الاعتقاد بين خلفاء الدولة العباسية تبعا لعوامل كثيرة ÷مها عقيدة خواص الخليفة والمقربين منه , والذين كان لهم الأثر في توجيه الخليفة نحو مذهب دون آخر , وفئة دون أخرى .

فالخليفة العباسي المأمون (ت 218 هـ) قامت في عهده فتنة القول بخلق القرآن وأراد حمل الناس على القول بذلك متأثرا بخلصائه وأصفيائه من المعتزلة ، إلى أن توفي ببلاد بيزنطة في آخر غزواته سنة 218 . [1]

وخلفه المعتصم (ت 227 هـ) الذي لم يخالف سيرة المأمون في الاعتزال , إلا أن من مناقبه أنه انبرى لمحاربة ثورات بابك الخرمي وغيرها , كما وقع في عهده فتح عمورية . [2]

وعلى طريقة المعتصم في التعصب للمعتزلة سار ولده الواثق (ت 232 هـ) [3] الذي خلفه أخوه المتوكل على الله (ت 247 هـ) الذي كان بداية يقرب أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي [4] حتى جاءت سنة 237 هـ , غضب عليه وقبض ضياعه وأمواله وحبسه ، وفي عهده أمر بترك الجدل الذي أثير في عهد المأمون والمعتصم " [5] , وفي عهد المتوكل انجلت أزمة الإمام أحمد رحمه الله .

[1] - انظر في سيرته : تاريخ الطبري ج 8 ص 527 وما بعدها .
[2] - انظر في سيرته : المرجع السابق ج 8 ص 667 وما بعدها .
[3] - انظر في سيرته : المرجع السابق ج 9 ص 123 وما بعدها
[4] - أحمد بن أبي دؤاد القاضي، جهمي بغيض، ولي القضاء للمعتصم والواثق ، أعلن بمذهب الجهمية وحمل الناس على امتحان الناس بخلق القرآن ، اتصل بالمعتصم ، فكان لا يقطع أمرا دونه . انظر ترجمته في : لسان الميزان ج 1 ص ووفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 81-91 والأعلام للزركلي ج 1 ص 124.
[5] - انظر : المرجع السابق ج 9 ص 154 وما بعدها

وقد كان من الخلفاء العباسيين من أخذ باعتقاد الحنابلة , كالخليفة القادر بالله (ت 422 هـ) والقائم بأمر الله (ت 567 هـ) . [1]

أما الأشاعرة فقد كان للوزير نظام الملك [2] دور عظيم في خدمة مذهبهم ونشره , وهو صاحب المدرسة النظامية التي انتشرت في كثير من البلدان .

يؤكد ما سبق أنه كان للمذهب الاعتقادي للخليفة أثر على المجتمع , من جهة تقريب الخليفة لأنصار مذهبه دون غيرهم , بل وقد يصل به الأمر إلى سجن المخالفين وتعذيبهم .

ثانيا : الدول المذهبية

ومن آثار الافتراق العقدي التي سجلها التاريخ قيام دول على أساس مذهبي , تولى الأمر فيها أصحاب المذهب , وعمدوا إلى فرض المذهب على الناس بالقوة , ومنها :

1 – الدولة الصفوية " التي أسسها الشاه إسماعيل الصفوي , فرض التشيع الاثني عشري على الإيرانيين قسراً، وجعل المذهب الرسمي لإيران , وكان إسماعيل قاسيا متعطشا للدماء إلى حد لا يكاد يصدق ، ويشيع عن نفسه أنه معصوم وليس بينه وبين المهدي فاصل، وأنه لا يتحرك إلا بمقتضى أوامر الأئمة الاثني عشر , ولقد تقلد سيفه وأعمله في أهل السنة، وكان يتخذ سب الخلفاء الثلاثة وسيلة لامتحان الإيرانيين " [3]

2 – دولة الموحدين : وأسسها " أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت ، الذي تلقب بالمهدي ، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة ، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفاً من العلم، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة ، ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب , ونشر دعوته بين أناس من البربر وغيرهم من الجهال الذي لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء الله , فعلمهم بعض شرائع الإسلام (...) وعظم اعتقاد أتباعه فيه ، واستحلوا بسبب ما علمهم من المعتقد الأشعري والفلسفي دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب

---

[1] - ابن كثير , البداية والنهاية : ج 12 ص 96 .

[2] - هو الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، أبو علي، ولد سنة 408هـ ، تولى الوزارة لسلاطين السلاجقة ثلاثين سنة , وكان له جهود عظيمة في حرب الحركات الباطنية والإسماعيلية , قتل سنة 585هـ , للمزيد انظر : المنتظم لابن الجوزي ج 9 ص 64-68 وطبقات الشافعية للسبكي ج 4 ص 309-328 .

[3] - القفاري , ناصر بن عبد الله : أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية - عرض ونقد - , ط 1 , 1414 هـ , ج 3 ص 1223 .

المالكية , الذين كانوا على معتقد أهل السنة واتهموهم زوراً وبهتاناً أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة " [1]

قال أبو البركات الألوسي رحمه الله : " صارت دولة الموحدين تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت ، إذ هو عندهم الإمام المهدي المعلوم المعصوم . وكثيرا ما أراق الدماء بسبب ذلك ، حتى عم مذهب الأشعري أكثر أمصار المسلمين ، وكأنه نسي غيره من المذاهب ، لم يخالفه إلا الحنابلة " [2]

وفي كلامه رحمه الله إشارة إلى دور تلك الدولة في نشر معتقد الأشاعرة , وحمل الناس عليه .

ولا زالت هذه اللوثة في مجتمعنا الإسلامي الكبير , فلا زالت بعض الدول تتعامل بنظام أحادية المذهب تجاه المناصب الدينية فيها , وذلك تبعا للمذهب العقدي الذي اتخذته الدولة والحاكم فيها , بل ؛ لقد وصل الأمر في بعض الدول إلى التضييق على المخالفين , ومطاردتهم ومنعهم من كثير من حقوقهم , وإن إطلالة سريعة على الدستور الخاص بالجمهورية الإيرانية لتدل على عمق النفس الطائفي البغيض الذي كتب به هذا الدستور .

ومما جاء فيه :

* المادة الأولى : نظام الحكم في إيران هو الجمهورية الإسلامية التي صوّت عليها الشعب الإيراني بالإيجاب بأكثرية 98.2% ممن كان لهم الحق في التصويت، خلال الاستفتاء العام الذي جرى في العاشر والحادي عشر من فروردين سنة ألف وثلاثمائة وثمان وخمسين هجرية شمسية، الموافق للأول والثاني من جمادى الأولى سنة ألف وثلاثمائة وتسع وتسعين هجرية قمرية. ولقد شارك الشعب في هذا الاستفتاء العام انطلاقًا من إيمانه الأصيل بحكومة القرآن العادلة الحقة ، وذلك بعد ثورته الإسلامية المظفرة بقيادة المرجع الديني الكبير آية الله العظمى الإمام الخميني .

---

[1] - ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 11 ص 475 .

[2] - الألوسي , نعمان بن محمود بن عبد الله (ت 1317 هـ) : جلاء العينين في محاكمة الأحمدين , مطبعة المدني , 1401 هـ , ص 251 .

* المادة الثانية جاء فيها : يقوم نظام الجمهورية الإسلامية على أساس :

1- الإيمان بالله الأحد (لا إله إلا الله) وتفرده بالحاكمية والتشريع، ولزوم التسليم لأمره .

2- الإيمان بالوحي الإلهي ودوره الأساس في بيان القوانين .

3- الإيمان بالمعاد ودورة الخلاق في مسيرة الإنسان التكاملية نحو الله .

4- الإيمان بعدل الله في الخلق والتشريع .

5- الإيمان بالإمامة والقيادة المستمرة ، ودورها الأساس في استمرار الثورة التي أحدثها الإسلام .

* المادة الخامسة : في زمن غيبة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) تكون ولاية الأمر وإمامة الأمة في جمهورية إيران الإسلامية بيد الفقيه العادل، المتقي، البصير بأمور العصر، الشجاع القادر على الإدارة والتدبير وذلك وفقاً للمادة 107 .

* المادة الثانية عشرة :

الدين الرسمي لإيران هو الإسلام والمذهب الجعفري الإثنا عشر، وهذه المادة تبقى إلى الأبد غير قابلة للتغيير.

وأما المذاهب الإسلامية الأخرى، والتي تضم المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والزيدي فإنها تتمتع باحترام كامل، وأتباع هذه المذاهب أحرار في أداء مراسمهم المذهبية حسب فقههم، ولهذه المذاهب الاعتبار الرسمي في مسائل التعليم والتربية الدينية والأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والإرث والوصية)، وما يتعلق بها من دعاوى المحاكم .

* المادة الثالثة عشرة :

الإيرانيون الزرادشت واليهود والمسيحيون هم وحدهم الأقليات الدينية المعترف بها ، وتتمتع بالحرية في أداء مراسمها الدينية ضمن نطاق القانون، ولها أن تعمل وفق قواعدها في الأحوال الشخصية والتعاليم الدينية .

إذن ؛ الدستور ينص على مرجعية الإمام الخميني لما فيه من أحكام وقوانين , والمادة التي تنص على اعتماد المذهب الجعفري , مادة باقية إلى الأبد , ولا مجال لتغييرها , والحديث عن معاملة أهل بقية المذاهب أشبه ما يكون بالحديث عن أهل الذمة .

والذي يحصل على أرض الواقع أبشع بكثير لما سطرناه , فأهل السنة والجماعة لم يعانوا اضطهادا كالذي يجدوه في إيران , ومسلمو الأهواز من أهل السنة مثال على ما تقوم به إيران من اضطهاد وقتل ومحاربة لأهل السنة , ما صنيعه اليوم بأهل السنة في دول الجوار إلى تأكيد لذلك .

المطلب الثاني : الفتن والحروب المذهبية

ومن الآثار الأليمة للافتراق العقدي , ما تسبب به هذا الافتراق من فتن , ووقيعة بين العلماء وطلبتهم , وقد تطور الأمر في بعض المواقف , وبلغ أو كاد يبلغ حد الحرب والاقتتال , ومن الشواهد على ذلك ما سآتي على ذكره الآن .

أولا : التجاوز مع المخالف

روى ابن عساكر عن هلال بن حسن بن أحمد الفقيه قال : " كنت ببغداد فقصدت زيارة قبر أحمد بن حنبل رحمه الله في جماعة من أهل بغداد والعجم فلما رجعنا اجتزنا بقبر أبي الحسن الأشعري رحمه الله وكان في جملتنا رجل بغدادي ممن ينتمي إلى مذهب الحنابلة , فتخلف عنا بعد ذهابنا من تربته وأحدث على قبره ولحق بنا , فأخبرني بذلك فكبر علي صنيعه وعاتبته على فعله فقال : لو قدرت على عظامه لنبشتها وأحرقتها فقلت له إن أبا الحسن لا يضره ذلك فإنه قد مات منذ زمان " [1]

وهذا صنيع التعصب بمن قل حظه من العلم والورع , ولو كان لدى هذا الرجل قليل من ورع لعلم أن لقبر المسلم حرمة لا يخدشها خلاف عقدي مهما بلغ .

روى الذهبي في ترجمة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الكيزاني قال " قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : كان يقول : أفعال العباد قديمة ، وبينه وَبَيْنَ أهل بلده نزاع ، وكان قد دفن عند ضريح الشافعي ، فتعصب عليه الخبوشاني [2] ، ونبشه ، وقال : هذا حشوي لا يكون عند الإمام ، ودفن في موضع آخر " [3]

وقال أبو محمد التميمي الحنبلي عن أبي يعلى الفراء معلقا على ما صنفه في الاعتقاد : " لقد خرئ أبو يعلى الفراء على الحنابلة خرية لا يغسلها الماء " [4]

---

[1] - ابن عساكر , تبيين كذب المفتري : ص 414 .

[2] - هو محمد بن الموفق بن سعيد، أبو البركات، نجم الدين الخبوشاني ، نسبة إلى خبوشان - بناحية نيسابور - انتقل إلى مصر، وحظي عند السلطان صلاح الدين , توفي - رحمه الله - سنة 587 هـ انظر ترجمته في : وفيات الأعيان لابن خلكان : ج 4 ص 239 و طبقات الشافعية للسبكي : ج 4 ص 190.

[3] - الذهبي , سير أعلام النبلاء : ج 20 ص 454 .

[4] - ابن الأثير , الكامل : ج 8 ص 209 .

وهنا تلفظ بما لا يليق , في معرض رده على مخالف في بعض مسائل الاعتقاد , ولو أنه عرف للمخالف قدره , ولم يتطاول , لكان نقده أحرى بالقبول والنظر .

ويقول الرافضي محمد الشيرازي : " مما يدل على إمامة أئمتنا الإثني عشر، أن عائشة كافرة مستحقة للنار، وهو مستلزم لحقية مذهبنا و حقية أئمتنا الاثني عشر، لأن كل من قال بخلافة الثلاثة اعتقد إيمانها وتعظيمها وتكريمها ، وكل من قال بإمامة الإثني عشر قال باستحقاقها اللعن والعذاب ، فإذا ثبت كونها كذلك ثبت المدعى ، لأنه لا قائل بالفصل . وأما الدليل على كونها مستحقة للعن والعذاب ، فإنها حاربت أمير المؤمنين عليه السلام " [1]

تأمل كيف جعل هذا الخبيث لعن الطاهرة المطهرة معيارا لصحة الاعتقاد عند أتباع المذهب , نعوذ بالله من الخذلان .

ثانيا : الاقتتال بين أتباع المذاهب

يذكر ابن الجوزي رحمه الله من أحداث السنة 447 هـ يقول : " واتصلت الفتن بين أهل باب الطاق وسوق يحيى اتصالا مسرفا , وركب صاحب الشرطة والأتراك لإطفاء الفتنة فلم ينفع ذلك , وانتقل القتال إلى باب البصرة وأهل الكرخ علي القنطرتين. ووقعت بين الحنابلة والأشاعرة فتنة عظيمة حتى تأخر الأشاعرة عن الجمعات خوفا من الحنابلة " [2]

ولنا مع هذه القصة وقفتان :

الأولى : أنه رغم أن الخلاف المشار إليه كان خلافا فقهيا بين الشافعية والحنابلة كما أشار بقية من أرخوا للقصة [3] , إلا أن ابن الجوزي سمى الشافعية هنا أشاعرة , إشارة إلى الخلاف العقدي الذي كان على أشده بين الفريقين حينها .

---

[1] - الشيرازي، محمد طاهر، كتاب الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين ، مطبعة الأمير , إيران , ط1 1418هـ , ص615 - 616

[2] - ابن الجوزي , عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك , ت : محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا , دار الكتب العلمية ، بيروت , ط 1، 1412 هـ , ج 15 ص 347 .

[3] - انظر : ابن الأثير : الكامل ج 8 ص 73 و ابن كثير : البداية و النهاية ج 12 ص 66

والثانية أن القصة وقعت زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت 567 هـ) الذي أشرنا في بداية هذا المبحث إلى أنه كان حنبلي الاعتقاد , مناصرا للحنابلة , وهذا دليل على أثر السلطة السياسية في الخلاف .

وروى الذهبي من أخبار دولة الموحدين , التي أسسها ابن تومرت بعد أن فرض الأشعرية بالسيف على أهل المغرب , يقول : " قوي أمر ابن تومرت في سنة خمس عشرة وخمسمائة ، فلما كان في سنة سبع عشرة جهز جيشا من المصامدة ، جلهم من أهل تينمل والسوس ، وقال لهم : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، وإلا فقاتلوهم ، وقد أباحت لكم السنة قتالهم.

وقدم عليهم عبد المؤمن ، فسار بهم قاصدا مراكش ، فخرج لقتالهم الزبير بن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فلما تراءى الجمعان كلموا المرابطين بما أمرهم به ابن تومرت ، فردوا عليهم أسوأ رد ، ووقع القتال، فانهزم المصامدة ، وقتل منهم مقتلة ، ونجا عبد المؤمن.
فلما بلغ الخبر ابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قيل : نعم .
قال : لم يفقد أحد , ثم أخذ يهون عليهم ، ويقرر عندهم أن قتلاهم شهداء ، فزادهم حرصا على الحرب " [1]

ثالثا : جرائم الشيعة والباطنية

غير أن كل ما ذكرناه , لا يعدل شيئا مما صنعه الشيعة والباطنية بمخالفيهم , حقدا منهم وغلا على كل مخالف من أهل السنة بالمفهوم العام , بمعنى ؛ أنهم لم يفرقوا بين حنبلي أو أشعري أو غيرهم , لأن كل من ينتسب إلى السنة عدو لهم , مهما كانت البدع التي تلبس بها , ما دامت لم تخرجه عن مفهوم السنة العام .

[1] - الذهبي , محمد بن أحمد (ت 748 هـ) : تاريخ الإسلام , المكتبة التوفيقية , ج 36 ص 81 - 82

وسأفصل في هذه النقطة , عل ما سيأتي ذكره فيها يكون هاديا لفرق أهل السنة إلى ترك ما بينهم من نزاع وخلاف , والتفاتهم إلى العدو الذي يتهدد وجودهم وكيانهم , ويسعى إلى استئصال شأفتهم , والله المستعان .

انطلق الشيعة في عداوتهم للمخالف من منطلق ديني عقدي , فكتبهم طافحة بالنصوص التي تحث على إقصاء الآخر , ولو كان ذلك بقتله .

قال الصدوق القمي (من كبرائهم) : " واعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده – عليهم السلام – أنه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء ، واعتقادنا فيمن أقر بأمير المؤمنين وأنكر واحدًا ممن بعده من الأئمة أنه بمنزلة من أقر بجميع الأنبياء وأنكر نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله " [1]

وقال يوسف البحراني : " وليت شعري أي فرق بين من كفر بالله سبحانه وتعالى ورسوله، وبين من كفر بالأئمة عليهم السلام مع ثبوت كون الإمامة من أصول الدين " [2]

هذان النصان يكفيان للدلالة على قيمة المخالف عندهم , فهو كافر تجري عليه – بالضرورة – أحكام الكفر , والواقع الذي عاشوه يصدق ذلك .

ويؤكده أيضا المامقاني بقوله : " وغاية ما يستفاد من الأخبار جريان حكم الكافر والمشرك في الآخرة على من لم يكن إثنى عشري " [3]

وعن جريان أحكام الكفر عليهم في الدنيا يقول المجلسي : " ويظهر من بعض الأخبار بل من كثير منها أنهم في الدنيا أيضا في حكم الكفار لكن لما علم الله أن أئمة الجور وأتباعهم يستولون على الشيعة , وهم يبتلون بمعاشرتهم ولا يمكنهم الاجتناب عنهم وترك معاشرتهم ومخالطتهم ومناكحتهم , أجرى الله عليهم حكم الإسلام توسعة ، فإذا ظهر القائم عليه السلام يجري عليهم حكم سائر الكفار في جميع الأمور , وفي الآخرة يدخلون النار ماكثين فيها أبداً مع الكفار " [4]

---

[1] - ابن بابويه القمي , محمد بن علي بن الحسين الملقب – عندهم – بالصدوق (ت 381 هـ) : رسالة الاعتقادات , مركز نشر الكتاب , إيران , 1370 هـ , ص103 .

[2] - البحراني , يوسف بن أحمد (ت 1186 هـ) : الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة , دار الأضواء , بيروت , ج 18 ص 153 .

[3] - المامقاني , عبد الله بن محمد (ت 1351 هـ) : تنقيح المقال , النجف , 1952 , ج 1 ص 208 .

[4] - المجلسي , بحار الأنوار : ج 8 ص 369 .

لذا ؛ فإن الشيعة الرافضة لم يتركوا سبيلا لحرب الإسلام والمسلمين إلا وسلكوه , ولا بابا من أبوب الخيانة إلا وطرقوه , وفيما سيأتي شواهد على ذلك .

قال ابن تيمية رحمه الله : " الرافضة يوالون أعداء الدين الذين يعرف كل أحد معاداتهم من اليهود والنصارى والمشركين : مشركي الترك ، ويعادون أولياء الله الذين هم خيار أهل الدين ، وسادات المتقين ، وهم الذين أقاموه وبلغوه ونصروه , ولهذا كان الرافضة من أعظم الأسباب في دخول الترك الكفار إلى بلاد الإسلام " [1]

ويذكر رحمه الله بعد ذلك أمثلة لجرائمه , يقول : " وأما قصة الوزير ابن العلقمي وغيره ، كالنصير الطوسي مع الكفار ، وممالأتهم على المسلمين فقد عرفها الخاصة والعامة , وكذلك من كان منهم بالشام : ظاهروا المشركين على المسلمين ، وعاونوهم معاونة عرفها الناس , وكذلك لما انكسر عسكر المسلمين ، لما قدم غازان ، ظاهروا الكفار النصارى ، وغيرهم من أعداء المسلمين ، وباعوهم أولاد المسلمين بيع العبيد وأموالهم ، وحاربوا المسلمين محاربة ظاهرة ، وحمل بعضهم راية الصليب , وهم كانوا من أعظم الأسباب في استيلاء النصارى قديما على بيت المقدس حتى استنقذه المسلمون منهم " [2]

وهذا غيض من فيض إجرامهم بحق أهل السنة , والذي يشهد له واقعهم المعاصر , فهم اليوم مصطفون إلى جانب ألد أعداء الأمة , ويقومون نيابة عنهم بإعمال آلة القتل فيهم , ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن جرائمهم التي حفظها لنا التاريخ ما نقله الدكتور ناصر القفاري عن " شيخهم نعمة الله الجزائري أنه في إخبارهم أن عليّ بن يقطين وهو وزير الرشيد قد اجتمع في حبسه جماعة من المخالفين – يعني أهل السنة - ، فأمر غلمانه وهدموا أسقف المحبس على المحبوسين , فماتوا كلهم وكانوا خمسمائة رجل تقريبا ، فأراد الخلاص من تبعات دمائهم ، فأرسل إلى الإمام مولانا

---

[1] - ابن تيمية , أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ) : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية , ت : محمد رشاد سالم , جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية , ط 1 1406 هـ , ج 7 ص 414 .

[2] - المرجع السابق , نفس الجزء والصفحة .

الكاظم فكتب إليه جواب كتابه : بأنك لو كنت تقدمت إلي قبل قتلهم لما كان عليك شيء من دمائهم . وحيث إنك لم تتقدم إلي فكفر عن كل رجل قتلت منهم بتيس ، والتيس خير منه " [1]

" وقد علق شيخهم الجزائري على دية التيس بقوله : فانظر إلى هذه الدية الجزيلة التي لا تعادل دية أخيهم الأصغر وهو كلب الصيد ؛ فإن ديته عشرون درهماً ، ولا دية أخيهم الأكبر وهو اليهودي أو المجوسي فإنها ثمانمائة درهم ، وحالهم في الآخرة أخس وأنجس " [2]

وهنا يظهر الحقد الدفين الذي يكنه هؤلاء على مخالفيهم من أهل السنة , دون إشارة إلى المذهب الذي كان عليه المخالف , يكفيه أن لا يكون رافضيا حتى يستحق القتل بهذه الصورة .

ومما سجله التاريخ من جرائمهم في حق المخالف ما نقله ابن كثير عن الخليفة المعز الفاطمي عندما " أحضر إلى بين يديه الزاهد العابد الورع الناسك التقي أبو بكر النابلسي ، فقال له المعز : بلغني عنك أنك قلت : لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين بسهم ، فقال : ما قلت هذا ، فظن أنه رجع عن قوله فقال : كيف قلت ؟

قال : قلت : ينبغي أن نرميكم بتسعة ثم نرميهم بالعاشر

قال : ولم ؟

قال : لأنكم غيرتم دين الأمة , وقتلتم الصالحين , وأطفأتم نور الإلهية ، وادعيتم ما ليس لكم .

فأمر بإشهاره في أول يوم , ثم ضرب في اليوم الثاني بالسياط ضربا شديدا مبرحا ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث ، فجئ بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن قال اليهودي : فأخذتني رق عليه ، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات رحمه الله " [3]

ولم تكن إشارة ابن كثير إلى رقة قلب اليهودي عليه – رحمه الله – عبثا , لعله أراد أن يدلل على أن مدى الحقد والعداوة في نفوس الرافضة قد يفوق ما في نفوس اليهود والنصارى .

---

[1] - القفاري , ناصر : أصول مذهب الشيعة الإمامية : ج 3 ص 1232 .

[2] - المرجع السابق : ج 3 ص 1233 .

[3] - ابن كثير , البداية والنهاية : ج 11 ص 32 .

ومن جرائمهم كذلك خيانة الوزير ابن العلقمي للخليفة المستعصم الذي استوزره , فقد " أعان على المسلمين في قضية هولاكو وجنوده قبحه الله وإياهم " [1]

ويذكر ابن كثير من مخازي ابن العلقمي أيضا أنه أراد " أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض ، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها ، فلم يقدره الله تعالى على ذلك ، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة ، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم بالدرك الأسفل من النار " [2]

وعن خيانات النصيرية يحدثنا ابن تيمية رحمه الله يقول : " ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم , وهم دائما مع كل عدو للمسلمين ؛ فهم مع النصارى على المسلمين , ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل وانقهار النصارى ؛ بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار , ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين (...) , فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل ؛ ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره ؛ فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك " [3]

فهذا شيء يسير مما سطره المؤرخون عن جرائم الشيعة والباطنية في حق المسلمين , ولعل فيها درس للمتناحرين ممن يجمعهم اسم أهل السنة والجماعة , إذا إن هناك من هو أولى بأن يصوبوا جهودهم نحوه , لكف شره وعاديته عن الإسلام والمسلمين , وما مصاب المسلمين اليوم من تكالب الرافضة والنصيرية عليهم إلا امتحان لأهل العلم في تقواهم لله , وحرصهم وغيرتهم على أمتهم , وصيانتهم للعلم الشريف الذي أكرمهم الله بحمله .

---

[1] - ابن كثير , البداية والنهاية : ج 13 ص 192 .
[2] - المرجع السابق : ج 13 ص 236 .
[3] - ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 35 ص 150 – 151 .

المبحث الثاني : أثر الافتراق العقدي على الواقع العلمي والدعوي

المطلب الأول : أثر الافتراق العقدي على الواقع العلمي

لقد كان للواقع العلمي حظ وافر من آثار الافتراق , ذلك لأن أصحاب المقالات والآراء والأهواء كانوا يحرصون على مد المكتبة المسلمة بنتاج يخدم فكرتهم , ويدافع عن مبدئهم , وكان لهذا النتاج العلمي فائدة تمثلت في إثراء المكتبة بمصنفات العلماء , وخدم هذا علم الجدل والمناظرة , إلا أنه في كثير من الأحيان كان يتجاوز حدود المعقول , ويخرج بفعل التصنيف والتأليف عن الغاية الشريفة منه , ويغرق القراء في بحر من الردود المتبادلة , والأدهى أن هذه الردود كانت تسلط على المخالفين من المسلمين , في ذات الوقت الذي كانت مؤلفات الكفر والإلحاد تحت سمع وبصر الفريقين , لكن أشغلهم عنها التعصب المذهبي المقيت الذميم .

ولم يقتصر الأمر على هذا , فقد جرأت الردود أصحابها على الاستهانة برمي المخالف بأبشع الأوصاف والصفات , وأفضى الأمر ببعضهم إلى لعن المخالف وتكفيره , وسأعمل في هذا المطلب على معالجة هاتين النقطتين , من خلال استقراء التاريخ والواقع , وعرض نماذج عملية لهذا الأثر, راجيا من الله التوفيق والسداد .

أولا : هيمنة كتب الردود على النتاج العلمي

إن المتتبع لثبت مؤلفات علماء الأصول في زمن الخلاف , يهوله عدد كتب الردود التي سطرها هؤلاء , في الوقت الذي تكون الأمة أحوج ما تكون فيه إلى نتاج علمي يخاطب المسلمين , يعلمهم دينهم بعيدا عن متاهات الخلافات .

وليس في هذا الكلام تقليل من شأن الردود , فلا شك أنها عظيمة النفع في رد عادية الكفرة والمبتدعة , الذين يريدون أن يلبسوا على الناس دينهم , لكن ؛ من الخطأ الجسيم أن يتعرف الناس على هذه البدع والضلالات قبل فشوها من خلال قراءتهم لكتب الردود , وقد كان السلف رضوان الله عليهم يحترزون من ذلك أعظم احتراز , قال الدارمي رحمه الله : " ولولا ما بدأكم هذا المعارض بإذاعة ضلالات المريسي وبثها فيكم ، ما اشتغلنا بذكر كلامه ، مخافة أن يعلق بعض

كلامه بقلوب بعض الجهال ، فيلقيهم في شك من خالقهم وفي ضلال ، أو أن يدعوهم إلى تأويله " [1]

وهنا نلحظ كيف أنه رحمه الله بين أنه لم ينبري للرد ابتداء , حتى بلغه أن هناك من يسعى لنشر كلام المريسي بين العوام , فأراد أن ينصحهم في ذلك .

فالضابط إذا ؛ أن من يسعى لبث الآراء المثيرة للجدل دون غيره هو الأولى بالرد , بل وبإشاعة الرد عليه بين الناس , أما أن نبدأ المخالف بمعركة الردود , فذلك يثير الفضول والشغف في نفوس العوام إلى مطالعة تلك البدعة والمخالفة , والحذر منها , ويشغل الصادقين عن المواضع الأولى بأن تتجه أقلامهم إلى نصرتها .

ثم إن بعض مثيري الفتن هؤلاء لا شك أنهم مأجورون , لإثارة البلبلة في صفوف المسلمين , ليوهن ذلك من عزمهم , ويفرق صفهم , وهنا لا يضير التصدي لهم , على أن لا يكون ذلك الشغل الشاغل للدعاة , فيتحقق بهذا مقصد أعداء الدين وخصومه .

وإن من اللافت في هذا الباب , أن مؤلفي الردود لا يكاد يسلم منهم احد , رغم أني أشرت في موضع سابق من هذا البحث [2] أن إسقاط المخالف بمجرد الخطأ مخالف لمنهج السلف .

وقد أحسن الشيخ بكر أبو زيد وصف تلك الفئة من الكتاب الذين لم يسلم منهم داعية أو مصلح , فقال عنهم رحمه الله :

" ومن هذا المنطلق الواهي ؛ غمسوا ألسنتهم في ركام من الأوهام والآثام , ثم بسطوها بإصدار الأحكام عليهم , والتشكيك فيهم وخدشهم , وإلصاق التهم بهم , وطمس محاسنهم , والتشهير

---

[1] - الدارمي , أبو سعيد عثمان بن سعيد (ت 280هـ) : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد , ت : رشيد بن حسن الألمعي , مكتبة الرشد للنشر والتوزيع , ط 1 , 1418هـ , ج 1 ص 142 .

[2] - انظر : المبحث الثاني من الفصل الثالث من هذه الرسالة .

بهم , وتوزيعهم أشتاتا وعزين في عقائدهم وسلوكهم , ودواخل أعمالهم وخلجات قلوبهم , وتفسير مقاصدهم ونياتهم , كل ذلك وأضعاف ذلك مما هنالك من الويلات , يجري على طرفي, التصنيف : الديني واللاديني . فترى وتسمع رمي ذاك , أو هذا بأنه : خارجي. معتزلي. أشعري . طرقي . إخواني . تبليغي . مقلد متعصب . متطرف . متزمت . رجعي . أصولي " [1]

فهؤلاء كما يصفهم رحمه الله , لم يكتفوا بما يظهر من المرء , بل شقوا عن صدره , وأسسوا أحكامهم على ما ظنوه وتوهموه عنده من معتقد أو رأي .

وينبه كذلك إلى أثر من أخطر آثار هذه الطريقة بقوله " وكم جرت هذه المكيدة من قارعة في الديار , بتشويه وجه الحق , والوقوف في سبيله , وضرب للدعوة من حدثاء الأسنان في عظماء الرجال باحتقارهم وازدرائهم , والاستخفاف بهم وبعلومهم وإطفاء مواهبهم , وإثارة الشحناء والبغضاء بينهم " [2]

وهذا الأثر يلحظه الناظر إلى واقعنا اليوم , من تسلط صغار طلبة العلم على العلماء والدعاة , ورميهم بالعظائم تقليدا لمشايخهم الذين حملوا – زورا – لواء الجرح والتعديل في زماننا .

أما عن حجم هذا النتاج , فيكفينا أن نضع كلمة " رد " في أي محرك بحث لمكتبة أو على الشبكة المعلوماتية (الإنترنت) , لتخرج لنا قوائم طويلة لم اخلوا عناوينها من أسماء علماء وفقهاء وقادة علم وأدب وفكر , لم تغفر لهم زلة بدرت منهم في كتاب لهم أو رسالة , ولم نجد في حياتهم ترجمة عملية لهذه الزلة , أو دعوة صريحة لها , وهو الضابط الذي اصطلح عليه شرطا للرد على المخالف .

---

[1] - أبو زيد , بكر : تصنيف الناس بين الظن واليقين , دار العاصمة , ص 9 .
[2] - المرجع السابق : ص 25 .

ويستأنس هنا بموقف علماء الحديث من الرواية عن المبتدع , فقد فرق بعضهم بين المبتدع لنفسه والداعي إلى بدعته .[1]

وعلى الطرف الآخر بدت ظاهرة اتخاذ فرد من العلماء غرضا للجرح والطعن من المخالفين , وليس أدل على ذلك من الهجمات المتواصلة من الذم والتجريح لابن تيمية رحمه الله قديما , وسيد قطب رحمه الله حديثا , ولا يتسع المقام لبسط الحديث عن تفاصيل هذه الظاهرة بالأسماء وعناوين المؤلفات , ولعل الإشارة تكفي إن شاء الله .

ويؤكد الشيخ بكر أبو زيد أن ظاهرة الردود المتبادلة هذه كان لها أثر في استطالة أعداء الدين وتجرؤهم على الثوابت , يقول رحمه الله : " يا لله كم صدت هذه الفتنة العمياء عن الوقوف في وجه المد الإلحادي ، والمد الطرقي ، والعبث الأخلاقي ، وإعطاء الفرصة لهم في استباحة أخلاقيات العباد ، وتأجيج سبل الفساد والإفساد " [2]

وصدق رحمه الله , فإني أحسب أن أعداء الإسلام من العلمانيين والليبراليين وغيرهم يطيرون فرحا مع كل موجة ردود بين علماء الإسلام , ينشغلوا بها عنهم وعن سمومهم التي يواصلون بثها دون كلل أو ملل .

ومن الضروري هنا أن أشير إلى من هم أولى بالرد من المخالفين في مسألة أو مسائل , لم تخرج صاحبها عن مسمى أهل السنة , فضلا عن أن تخرجه من الملة .

فالشيعة والباطنية لا زالوا ينفثون سمومهم عبر المؤلفات والرسائل , وتعدى الأمر ذلك إلى توظيف القنوات الفضائية التي تدخل كل بيت , ويعملون ليل نهار على نشر أفكارهم وعقائدهم , والدفاع عن جرائمهم بحق المسلمين .

والنصارى كذلك لم يفتهم استغلال هذه الثورة في قطاع الاتصالات , فلهم أيضا ما لهم من كتب ونشرات وقنوات تبشيرية , تسعى إلى إخراج الناس من دينهم .

---

[1] - انظر : ابن كثير , إسماعيل بن عمر (ت 774هـ) :الباعث الحثيث إلى اختصار علوم الحديث , ت : أحمد محمد شاكر , دار الكتب العلمية، بيروت , لبنان , ط 2 , ص 99 .

[2] - بكر أبو زيد : تصنيف الناس : ص 29 .

ومن بني جلدتنا كذلك ظهرت طائفة من العقلانيين والعلمانيين والليبراليين , الذين جعلوا من أصول الدين وثوابت العقيدة غرضا لهم , فهؤلاء مشكلتنا معهم ليست في نص أولوه , أو عالم جرحوه , بل ؛ إن كلامهم تطاول حتى تجرؤوا فيه على الله ورسوله , وأهل بيته وأصحابه , ولأم ينتدب إلا القلة أنفسهم لرد عادية هذه الفئة المنحرفة .[1]

فهؤلاء كلهم ينتظرون وقفة جادة من العلماء , بتوجيه طلبة العلم إلى الائتلاف فيما بينهم والوقوف في وجه هذا المد البغيض , الذي يستهدف الإسلام من أصوله , والله المستعان .

ثانيا : الاستهانة بأحكام التكفير واللعن في حق المخالف

إن من أخطر ما تسبب به الافتراق العقدي هو شيوع ثقافة اللعن والتكفير والتهام بين المختلفين , ولقد حشى كثير من هؤلاء كتبهم بوصف المخالف بما لا يليق , ومن الأمثلة على ذلك وصف الأشاعرة لمخالفيهم من الحنابلة أنهم حشوية[2] , وقد مر في المبحث السابق ذكر قصة نبش الخبوشاني لقبر أحد الحنابلة , وقوله عنه : " هذا حشوي لا يكون عند الإمام "[3]

وكتب بعض الأشاعرة وصفا مقذعا للحنابلة انتصارا للقشيري , لم يخلوا من مبالغة وتجاوز في حق المخالف , وكان مما قالوه : " إن جماعة من الحشوية والأوباش الرعاع المتوسمين بالحنبلية , أظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازي الشنيعة ما لم يتسمح به ملحد فضلا عن موحد , ولا تجوز به قادح في أصل الشريعة ولا معطل "[4]

وشبه ابن قدامة الحنبلي الأشاعرة بالزنادقة بقوله : " ولا نعرف في أهل البدع طائفة يكتمون مقالتهم ولا يتجاسرون على إظهارها ؛ إلا الزنادقة والأشعرية , وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بإظهار الدين والدعاء إليه وتبليغ ما أنزل عليه "[5]

---

[1] - ممن اهتم ببيان فساد هذه الفئة و تتبع ضلالاتها على سبيل المثال : محمد المنجد في كتابه : بدعة إعادة فهم النص , وسليمان الخراشي في سلسلة : نظرات شرعية في فكر منحرف , وغيرهم .

[2] - أي ؛ الذين هم حشو في الناس ليسوا من المتأهلين عندهم , انظر : ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج 12 ص : 176

[3] - القصة في المطلب الثاني من المبحث الأول من هذا الفصل .

[4] - ابن عساكر , تبيين كذب المفتري : ص 310 .

[5] - ابن قدامة , موفق الدين عبد الله بن أحمد (ت 620 هـ) : حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة , ت : عبد الله يوسف الجديع , مكتبة الرشد , الرياض , ط 1 , 1409 هـ , ص 35 .

ولسنا هنا في مقام محاكمة الأئمة الأعلام فيما قالوه , فإنا لم نبلغ درجتهم ومنزلتهم , وإن لهم مواردهم ومشاربهم للأحكام , لكن ؛ من الواجب تحذير صغار طلبة العلم , ممن يتخذوا مثل هذه النقول وسيلة للطعن في المخالف , من دون النظر إلى حاله وما هو عليه .

ومن الأمثلة كذلك قول ابن حزم رحمه الله لما حدثوه أن رجلا من الأشاعرة قال " على من يقول أن الله قال : قل هو الله أحد الله الصمد ألف لعنة , (قال أبو محمد) بل على من يقول أن الله عز وَجل لم يقلها ألف ألف لعنة تترى وعلى من ينكر أننا نسمع كلام الله ونقرأ كلام الله ونحفظ كلام لله ونكتب كلام الله ألف ألف لعنة تترى من الله تعالى فإن قول هذه الفرقة في هذه المسألة نهاية الكفر بالله عز وجل ومخالفة للقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم ومخالفة جميع أهل الإسلام قبل حدوث هذه الطائفة الملعونة " [1]

ويحدثنا ابن الجوزي رحمه الله عن مثال آخر وقع سنة 521 هـ يقول " وزادت الفتن في بغداد ، وتعرض أصحاب أبي الفتوح (الأشعري) بمسجد ابن جردة فرجموا ورجم معهم أبو الفتوح ، وكان إذا ركب يلبس الحديد ومعه السيوف المجذبة تحفظه ، ثم اجتاز بسوق الثلاثاء فرجم ورميت عليه الميتات , ومع هذا يقول: ليس هذا الذي نتلوه كلام الله إنما هو عبارة ومجاز ، والكلام الحقيقي قائم بالنفس , فينفر أهل السنة كلما سمعوا هذا ، فلما كان اليوم الذي دفن فيه أبو الحسن ابن الفاعوس (الحنبلي) انقلبت بغداد لموته، وغلقت الأسواق، وكان الحنابلة يصيحون على عادتهم : هذا يوم سني حنبلي , لا قشيري ولا أشعري ، ويصرخون بسب أبي الفتوح ، فمنعه المسترشد من الجلوس ، وأمر أن لا يقيم ببغداد " [2]

وهذه من مظاهر العصبية التي سادت في ذلك العصر , الذي كان يموج بالفتن بين أرباب المقالات وأصحاب المذاهب , والتي نسأل الله أن يعصم مجتمعنا منها , وأن يرزقنا الرشد والسداد في كل أمورنا .

---

[1] - ابن حزم , الفصل : ج 4 ص 160 .
[2] - ابن الجوزي , المنتظم : ج 17 ص 245 .

وقد تجلى هذا الأثر في أبشع صوره عند الرافضة , الذين تجاوزوا الطعن في المخالف إلى الطعن في أصول الدين , وسبهم ولعنهم كان لأطهر جيل , الجيل الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم , ومما قالوه فيهم :

روى المجلسي عن جعفر الصادق أنه قال : " تدرون مات النبي صلى الله عليه وآله أو قتل ؟ إن الله يقول : " أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم " (آل عمران 144) ، فسُم قبل الموت ، إنهما – يعني عائشة وحفصة - سمتاه , فقلنا : إنهما وأبويهما شر من خلق الله " [1]

في هذا النص جمع المجلسي بين الافتراء على جعفر الصادق رحمه الله , وعلى أم المؤمنين عائشة وحفصة , والطعن في سيرة أمهات المؤمنين المطهرات , واتهامهن بقتل النبي صلى الله عليه وسلم .

وهاجم الرافضة كذلك الفرق المخالفة , وشنعوا عليهم , ورموهم بأقبح الأوصاف , فأما الحنابلة فإنهم خصوم تقليديون للرافضة , وما بينهم من مساجلات منتشر ومعروف , وسأتعرض لكلامهم في الأشاعرة , ليظهر كيف أنهم لا يفرقون عند الخلاف بين حنبلي سلفي ومتكلم أشعري , ومما قالوه في الأشاعرة :

يقول نعمة الله الجزائري : " فالأشاعرة لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح ، بل عرفوه بوجه غير صحيح ، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين معرفة باقي الكفار , فالأشاعرة ومتابعوهم أسوء حالا في باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى وحاصله ؛ أنا لم نجتمع معهم على إله ولا على نبي ولا على إمام , فظهر من هذا أن البراءة من أولئك الأقوام من أعظم أركان الإيمان" [2]

---

[1] - المجلسي، بحار الأنوار، ج 31، ص641 .

[2] - الجزائري , نعمة الله (ت 1112 هـ) : الأنوار النعمانية , مؤسسة الأعلمي , لبنان , ج 2 ص 278 .

فالأشاعرة عند الجزائري لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح , فماذا سعنا نقول في حق الرافضة الذين ألحقوا النقائص بالله – تعالى عما يفترون – والنبي وآله وأصحابه , وهذه دعوة للمختلفين من المسلمين من أهل السنة أن ينظروا حالهم عند الرافضة , عل ذلك يكون سبيلا إلى توحدهم في وجه الرافضة , وتركهم ما بينهم من خلاف .

ويقول رجب البرسي : " وأما الإمامية الإثنا عشرية ، فإنهم أثبتوا لله الوحدانية ، ونفوا عنه الإثنينية ، ونفوا عنه المثل والمثيل ، والشبه والتشبيه ، وقالوا للأشعرية : إن ربنا الذي نعبده ونؤمن به ليس هو ربكم الذي تشيرون إليه ، لأن الرب مبرأ عن المثلات ، منـزه عن الشبهات ، متعال عن المقولات " [1]

ويقول المازندراني شاتما الأشاعرة : " والذات مع الصفة غيرها بغير صفة وأما الأشاعرة فهم أنذل وأنزل من أن يفهموا هذه المعاني " [2]

فهذا رأيهم في الأشاعرة وسائر فرق أهل السنة المخالفين لهم في عقائدهم الكفرية , وهنا تجدر الإشارة إلى عظيم جرم من رأى الخلاف مع الحنابلة نقطة التقاء مع الرافضة , فسلم منه الرافضة , وأعمل قلمه هجوما ونقدا وتجريحا للسلفية والسلفيين , ولو تدبر لعلم أن الذود عن عرض النبي وأصحابه و دينه وقرآنه , هو أعظم مبدأ يجمعه بإخوانه من أهل السنة في وجه الرافضة والباطنية .

---

[1] - البرسي , رجب : مشارق أنوار اليقين , ت : علي عاشور، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت , ط 1 , 1419هـ , ص 337 .

[2] - المازندراني , محمد صالح (ت 1081 هـ) : شرح أصول الكافي , ضبط وتصحيح : علي عاشور , ط 1 , 1421 هـ , ج 3 ص 102 , الحاشية (2) .

المطلب الثاني : أثر الافتراق العقدي على الواقع الدعوي

أولا : توظيف المنابر الدعوية في الخلاف العقدي

وأعني بالمنابر الدعوية الوسائل التي نتجت عن التطور العلمي , إضافة إلى الوسائل التقليدية , ومنها : المدارس والجامعات , وحلق الدروس في المساجد , وحديثا ظهرت الإذاعات والصحف والمجلات , والفضائيات التي دخلت البيوت وتركت أعظم الأثر في النفوس .

لقد حرصت هذه الفرق على اتخاذ مدارس تعمل على تدريس المذهب , وتخريج طلبة العلم المنافحين عنه , ومن أشهر الأمثلة عليها المدرسة النظامية " التي أنشئت في مدن عديدة منها : البصرة ، أصفهان ، وبلخ ، وهراة ، ومرو ، والموصل ، وأهمها وأكبرها المدرسة النظامية في نيسابور وفي بغداد ، وقد جعلهما مع أوقافهما وقفا على أصحاب الشافعي أصلا وفرعا ، وكان نظام الملك معظما للصوفية و للقشيري والجويني وغيرهما من أعلام الأشعرية ، وقد كان هؤلاء يلقون دروسهم في هذه المدارس على المذهب الشافعي ، ويدرسون أصول العقيدة الأشعرية ، فكان لذلك دور عظيم في نشرها " [1]

وقد كان للمدارس أحادية المذهب آثار سلبية لا يمكن تجاهلها , منها ما عرف في التاريخ بفتنة القشيري , وخلاصتها أن ابن القشيري قدم بغداد سنة 469 هـ ، فجلس يتكلم في المدرسة النظامية , وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم ، وكتب إلى نظام الملك يشكو إلى الله الحنابلة ويسأل المعونة عليهم ، كما أرسل بعض مؤيديه إلى الشريف ابن جعفر شيخ الحنابلة وهو في مسجده للاعتداء عليه , فدافع عنه أتباعه ، واقتتل الناس بسبب ذلك وقتل رجل خياط وجرح آخرون ثم انتهت الفتنة بالمصالحة بين الشيوخ الطرفين [2]

وهذه هي النتيجة الطبيعية للتعصب الذي يحمل على استفزاز المخالف , والاستقواء عليه بالسلطان وعامة الناس , وأي تضييع للأمانة أعظم من أن يكون العالم سببا لتفريق الناس وتشتيتهم , بدلا من أن يعمل التزاما بروح الإسلام على لم شملهم , وتآلفهم وتحاببهم .

---

[1] - المحمود , عبد الرحمن بن صالح : موقف ابن تيمية من الأشاعرة , مكتبة الرشد , الرياض , ط 1 ، 1415 هـ , ج 2 ص 500 .

[2] - انظر تفاصيل الحادثة في : المنتظم لابن الجوزي : ج 16 ص 181 والبداية والنهاية لابن كثير ج 12 ص 140 .

وتعاظم الأثر السلبي في زماننا لما ظهرت وسائل الاتصال الحديثة , وتطورت وسائل الإعلام حتى ظهرت الفضائيات التي دخلت البيوت , وأصبحت سبيلا لإيصال ما تريده هذه الفرق بيسر وسهولة , ومن المؤلم والمؤسف أن الشيعة سبقوا أهل السنة في هذا الباب , بسبب تغولهم على الشبكة العنكبوتية (الانترنت) وملئها بمقالاتهم ورسائلهم , نقاشاتهم وفتاواهم , وإشرافهم على بث أكثر من ثلاثين قناة فضائية تستهدف دين عوام المسلمين وعقيدتهم .

يقول الهيثم زعفان موضحا خطر هذه القنوات : " ومخاطر هذه القنوات الشيعية لا تقف عند حدودها العقدية , لكنها تمتد لتلامس الأوضاع السياسية للدول السنية وقادتها , مما يشكل خطورة مباشرة على الأمن القومي واستقرار البلاد السنية , ومن ثم فإن استمرارها في بث سمومها وتحريضها بحرية , وتمكن وصولها لكل بيت في المنطقة العربية السنية قد يصنع رأياً عاماً مشكلاً وفق الرؤية الفارسية، وقابل للتحرك وإحداث القلاقل داخل المجتمع السني في لحظة ما " [1]

ويقول احمد عمرو : " وإن كان للعجب مكان، فلنا أن نعجب أن عدد القنوات الشيعية بلغ 35 قناة تبث سمومها باللغة العربية ، وهي موجهة إلى منطقتنا العربية مستهدفة عقدية شعوبها وانتمائها، في الوقت الذي ليس للسنة قناة واحدة تبث باللغة الفارسية موجهة لأهلها , دولة واحدة ترعى العديد من القنوات التي تبث بغير لغتها ، وعشرات الدول السنية لا نجد من بينها دولة واحدة تتكفل بنقل عقيدتها السنية للشعوب الأخرى بلغتهم الخاصة " [2]

وهذه إشارة نفيسة مهمة منه , فمخاطبة الشعوب غير العربية بعقيدة أهل السنة بلغتهم أمر في غاية الأهمية , وذلك لقطع الطريق على الساسة الرافضة في غسل أدمغة شعوبهم واستمرار مخاطبة بالنفس التحريضي المقيت .

ثانيا : انشغال الدعاة بأنفسهم ومخالفيهم عن المحتاجين للدعوة

[1] - زعفان , الهيثم : مخاطر الفضائيات الشيعية على عقيدة أهل السنة , موقع البرهان:
http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no=3383#.UdeDwaxTsW8
[2] - عمرو , أحمد : الفضائيات الشيعية.. حرب إيرانية جديدة , موقع البرهان :
http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no=3649#.UdeGGaxTsW8

وهذا هو المقصود والمراد من هذه الرسالة , إن العالم لا يزال يئن تحت وطأة بعده عن الإسلام , وحرمانه من هذا النور الإلهي , والشريعة السمحة , ولئن لم يكن للافتراق العقدي غير هذا الأثر لكفى , وهو انشغال المسلمين بأنفسهم عن عدوهم أن يردوه , وعن غير المسلمين أن يدعوهم ويبصروهم .

عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية , حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه , ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال صلى الله عليه وسلم : سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ؛ سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها , وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها , وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " [1]

إن بأس الأمة لا بد أن يوجه تجاه العدو لا إلى إخوة الدين , فإن ذلك من أعظم أمارات الخذلان , وإن من الواجب على العلماء والدعاة أن يوجهوا طلبة العلم إلى هذا المقصد الشريف , بل إن واجب الدعوة لا يسقط عن أحد من أهل السنة مهما كان مذهبه .

وقد اعتبر أبو الحسن علي بن مسلم السلمي (ت 533 هـ) في إحدى خطبه توقف المسلمين عن ممارسته – يعني الجهاد - سبباً في اختلاف كلمتهم وتمزق وحدتهم من جهة ، وفي طمع الأعداء بهم واحتلال بلادهم مبتدئين بالمناطق الأقرب , متابعين حتى بلاد الشام التي وجدوها ممالك مختلفة متنافسة ، ومذاهب متعددة , مما أغرى باحتلالها , وقال رحمه الله مبينا ما ينبغي أن يكون : " فقد تبين مما ذكرت أنه إذا احتيج إلى الجماعة بغزو كلهم فرضاً واجباً

[1] - رواه مسلم , كتاب الفتن و أشراط الساعة , باب إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها , برقم : 2890 .

عليهم وذلك في مثل هذه الحال التي نحن عليها الآن مع هذه الفرقة الهاجمة على بلاد الشام – يقصد الصليبيين " [1]

يقول ابن تيمية رحمه الله مبينا مبدأ الموازنة في هذا الباب : " أكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل وبدعة ببدعة لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين فيصير الكافر مسلما مبتدعا وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع , ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون عليا " [2]

فكيف يسوغ لداعية بعد ذلك أن يحمل حديثي الإسلام على أدق تفاصيل مذهبه العقدي , حتى لو أدى ذلك إلى نفورهم وإعراضهم ؟

كيف يسوغ للدعاة أن تكون مراكزهم الدعوية في بلاد الغرب متمايزة بحسب المذهب العقدي الذي تنتمي إليه كل مدرسة منها ؟

وكيف يسوغ للموسرين من المسلمين أن لا ينفقوا أموالهم في سبيل الله , جهادا ودعوة إلا إذا كانت الجهة المتلقية للمال تتعبد الله بمذهب المتبرع ؟

بل كين ينام المخلصون من طلبة العلم هانئين مطمئنين , لأن انتصار الإسلام عندهم ينحصر في إفحام مخالف في الرأي , وأعداء الإسلام ينتهكون الحرمات , ويستحلون المحرمات .

---

[1] - حلواني، أحمد عبد الكريم : ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية , دار الفداء، دمشق ، 1991م ص 41 , نقلا عن : د. رياض مصطفى أحمد و عبد الحميد جمال الفراني , دور الفقهاء والعلماء في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين في بلاد الشام 491 -690هـ , الجامعة الإسلامية , غزة

[2] - ابن تيمية , مجموع الفتاوى : ج 2 ص 14 .

لقد وضع رحمه الله ضابطا لا يجعل مسلما من أهل السنة في حل من فريضة الأمر بالمعروف والنهي والمنكر , والدعوة إلى الله عز وجل , فكيف إذا كان ما نراه اليوم من حال أمتنا , إن أمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى المسلمين على اختلاف مذاهبهم , ليذودوا عن الحرمات ويصونوها , ويحموا بيضة الإسلام , ويعمل وان على رفعة شأنه , ولا يمنع ذلك أن يتناصحوا بينهم , لكن على أن تظل هذه الغاية الكريمة الشريفة , مظلة تظلهم معا , وتجعلهم صفا واحدا كالبنيان المرصوص في وجه أعداء الأمة الذين تكالبوا عليها , وسعوا بما يملكون لإغراقها في سيل عرم من الخلافات , وسعوا إلى تعاهد فكر المذاهب المخالفة لأهل السنة كي ينشغلوا بها عن عدوهم الأول , ومن تأمل صنيع بريطانيا في رعايتها لظهور القاديانية في الهند , علم أن الأعداء يعولون على نتائج وثمرات الخلاف العقدي البغيض , أكثر من تعويلهم على قوة السلاح والمال .

نسأل الله العظيم أن يبرم لأمتنا إبرام رشد , يعز فيه أهل طاعته , ويذل فيه أهل معصيته , والحمد لله رب العالمين .

الخاتمة

في نهاية هذا البحث , يحسن بي أن أعرض ملخصا لأبرز النتائج التي توصلت إليها , وهي كالآتي :

1 – إن الافتراق من أعظم ما ابتليت به الأمة , ودفعه والحد من آثاره واجب على كل مسلم .

2 – حديث الافتراق صحيح تبعا للراجح من أقوال أهل العلم , ومضعفوه يلزمهم ما جاء في شواهده التي من القرآن والسنة , والخلاف حوله لا ينفي صحة المعنى الذي شهدت له الآيات والأحاديث .

3 – استفاد المسلمون أحكاما كثيرة من حديث الافتراق , ولا علاقة بهذه الاستفادة بحالة الحديث من جهة الصحة والضعف .

4 – الافتراق ليس محتما , بل دفعه ممكن بالأخذ بالأسباب الشرعية لذلك , وعلى رأسها ؛ لزوم منهج السلف , ونبذ التعصب , والانشغال بجهاد الأعداء .

5 – أسباب الافتراق الداخلية والخارجية تتكامل , وتؤدي دورها في إحداث الشقاق بين المسلمين .

6 – الأمم الأخرى كان لها دور لا يستهان به في إحداث الافتراق بين المسلمين , ودورهم هذا لم ينقطع حتى يومنا هذا .

7 – الدعوة إلى عقيدة السلف هي صمام الأمان للأمة , لأنها العقيدة التي اجتمعت عليها الأمة قبل الخلاف , وهي التي بلغوا فيها أسمى الدرجات .

6 – الائتلاف له ضوابط , التمسك بها سبيل لرص الصف , وتوحيد الكلمة . , لا بد لمن أراد أن ينال ما نالوا , أن يأتي بها .

7 – للافتراق العقدي آثار لم تقتصر على جانب من الحياة دون آخر , بل شملت جوانب الحياة المختلفة .

8 – الشيعة الإمامية كان ولا زال لهم نصيب الأسد من مفاسد الافتراق وأضراره , ويظهر جليا في مواقفهم تجاه الأمة ذلك النفس البغيض الذي أفرزه الافتراق .

9 – لم يسلم جيل حدث فيه الافتراق من تبعاته وآثاره السلبية , مما يحتم على أهل كل زمن العمل على توقي منه وتلافيه .

10 – لا حل لخروج الأمة ما هي فيه إلا بوقفة حازمة من أبنائها , يستعلون فيها على الخلاف , ويدرؤون آثاره السلبية عنهم وعن أمتهم .

التوصيات :

يوصي الباحث بضرورة أن يعمل الباحثون على تغذية فكر الوفاق والاجتماع بين المسلمين , وعمل دراسات تؤصل لهذا الفقه وتوضح أحكامه وآدابه .

وتوجيه الأمة نحو تسخير مقدراتها المادية والبشرية في سبيل خدمة مشروع الأمة , وتوحيد صفها في مواجهة أعدائها .

ويوصي بضرورة أن يتواصى الدعاة إلى الله بينهم بهذا الفقه , وأن يجعلوا أسم أهل السنة والجماعة سبيلا لتراحمهم وتناصحهم , لا تفرقهم واختلافهم .

وأن ينتبه العلماء إلى خطورة تفشي مرض التفرقة , الذي من أهم آثاره ضياع هيبة العلم والعلماء , وجرأة صغار طلبة العلم على العلماء , والانشغال بالنقاشات والمنازعات عن واجب الوقت ؛ الذي هو صيانة حرمة الأمة من العدوان .

ويوصي الباحث بجعل وقفة الأمة في وجه أعدائها المتكالبين عليها , سبيلا لجمع كلمة أتباع المذاهب المختلفة , وتوحدهم في صف عدوهم الذي يستهدف أصول الدين , وان يكون لعلماء دور الريادة في هذا الباب .

هذا ما من الله عز وجل علي بجمعه في هذا الباب , فما وفقت فيه فمن الله , وما قصرت وأسأت فيه فمن نفسي ومن الشيطان .

أسأل الله العظيم لأمتي فجرا مشرقا من العزة والرفعة والمجد , يصنعه أبناؤها , بعرقهم ودمائهم , ومداد أقلامهم , وأختم بحمد الله تبارك وتعالى , والصلاة والسلام على نبيه محمد على آله وأصحابه أجمعين .

قائمة المراجع

- الآمدي , علي بن أبي علي (ت 631 هـ) , **الإحكام في أصول الأحكام** , (تحقيق : عبد الرزاق عفيفي) , المكتب الإسلامي ، بيروت .

- ابن الأثير , علي بن أبي الكرم (ت 630 هـ) , **الكامل في التاريخ** , (تحقيق عمر عبد السلام تدمري) , دار الكتاب العربي، بيروت , ط 1 , 1417 هـ .

- الأشعري , أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 324 هـ) , **الإبانة عن أصول الديانة** , (تحقيق فوقية حسين محمود) , دار الأنصار, القاهرة , ط 1 , 1397هـ .

- الأصبحي , مالك بن أنس (ت 179 هـ) , **الموطأ** , (تحقيق محمد مصطفى الأعظمي) , مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية , الإمارات , ط 1 , 1425 هـ

- الأصبهاني , إسماعيل بن محمد (ت 535 هـ) , **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة** , (تحقيق محمد المدخلي) , دار الراية , السعودية , ط 2 , 1419 هـ .

- الألباني , أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (ت 1420 هـ) , **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** , مكتبة المعارف – الرياض – ط 1 , 1415هـ .

- الألوسي , محمود شكري بن عبد الله (1342 هـ) , **غاية الأماني في الرد على النبهاني** , (تحقيق أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي) , مكتبة الرشد، الرياض , ط 1 , 1422 هـ

- الألوسي , نعمان بن محمود (ت 1317 هـ) , **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين** , مطبعة المدني , 1401 هـ

- الإيجي , عبد الرحمن بن أحمد (ت 756 هـ) , **المواقف** , (تحقيق عبد الرحمن عميرة) , دار الجيل , بيروت .

- ابن بابويه القمي , محمد بن علي بن الحسين (ت 381 هـ) , **رسالة الاعتقادات** , مركز نشر الكتاب , إيران , 1370 هـ .

- البحراني , يوسف بن أحمد (ت 1186 هـ) , **الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة** , دار الأضواء , بيروت .

- البخاري , محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ) , **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري , (** تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر) , دار طوق النجاة ، ط 1 , 1422هـ .

- البرسي , رجب بن محمد (ت 813 هـ) , **مشارق أنوار اليقين** , (تحقيق علي عاشور) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت , ط 1 , 1419هـ .

- البعلي , محمد بن علي (ت : 778 هـ) , **المنهج القويم في اختصار اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية** , (تحقيق علي العمران) , دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة , ط 1 , 1422 هـ

- البغدادي , عبد القاهر بن طاهر (429 هـ) , **الفرق بين الفرق** , دار الآفاق الجديدة , بيروت , ط 2 , 1977 م .

- البغوي , الحسين بن مسعود , **معالم التنزيل في تفسير القرآن** , (تحقيق عبد الرزاق المهدي) , ط 1 , 1420 هـ .

- البلخي , محمد بن أحمد بن يوسف (ت : 387 هـ) , **مفاتيح العلوم** , (تحقيق إبراهيم الأبياري) , دار الكتاب العربي , ط 2 .

- البهوتي , منصور بن يونس (ت 1051 هـ) , **كشاف القناع** , دار الكتب العلمية , بيروت , 1418 هـ .

- البيضاوي , عبد الله بن عمر (685 هـ) , **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** , (تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي) دار إحياء التراث العربي , بيروت , ط 1 , 1418 هـ .

- الترمذي , محمد بن عيسى (ت 279 هـ) , **الجامع الكبير = سنن الترمذي** , (تحقيق بشار عواد معروف) , دار الغرب الإسلامي , بيروت , 1998 م .

- التفتازاني , سعد الدين مسعود (ت 792 هـ) , **شرح المقاصد في علم الكلام** , دار المعارف النعمانية – باكستان - , ط 1 , 1981 م .

- ابن تيمية , أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ) , **مجموع الفتاوى** , (جمع وتحقيق : عبد الرحمن القاسم) , مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة المنورة - 1995 م .

- ابن تيمية. أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ) , **اقتضاء الصراط المستقيم** . ط 2. السنة المحمدية – القاهرة - 1369هـ .

- ابن تيمية , أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ) , **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية** , (تحقيق محمد رشاد سالم) , جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية , ط 1 , 1406 هـ .

- ابن الجوزي , عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) , **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** , (تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مصطفى عبد القادر عطا) , دار الكتب العلمية ، بيروت , ط 1، 1412 هـ .

- ابن الجوزي , عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) , **تلبيس إبليس** , دار الفكر , بيروت , ط 1 , 2001 م .

- ابن الجوزي , عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) , **صيد الخاطر** , دار القلم , دمشق , ط 1 , 1425 هـ .

- ابن الجوزي , عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) , **زاد المسير في علم التفسير** , (تحقيق عبد الرزاق المهدي) , دار الكتاب العربي , ط 1 , 1422 هـ .

- الجويني , عبد الملك بن عبد الله (ت 478 هـ) , **البرهان في أصول الفقه** ، (تحقيق د. عبد العظيم الديب) , دار الأنصار بالقاهرة ، ط 2 (1400هـ) .

– الجويني , عبد الملك بن عبد الله (ت 478 هـ) , **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد** , (تحقيق محمد يوسف موسى) , دار السعادة , مصر , 1950 م .

- الجزائري , نعمة الله بن محمد (ت 1112 هـ) , **الأنوار النعمانية** , مؤسسة الأعلمي , لبنان .

- الجيلي , عبد الكريم (ت 826 هـ) , **الإنسان الكامل** , ط 4 , 1981 .

- حاجي خليفة , مصطفى بن عبد الله (ت 1068 هـ) , **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** , مكتبة المثنى , بغداد , 1941 م .

- الحاكم , محمد بن عبد الله (405 هـ) , **معرفة علوم الحديث** , مجلس دائرة المعارف العثمانية , حيدر آباد – الهند - , 1401 هـ .

- ابن حجر , أحمد بن علي (852 هـ) , **فتح الباري شرح صحيح البخاري** , (أشرف على طبعه : محب الدين الخطيب) , دار المعرفة , بيروت ، 1379 هـ .

- ابن حزم , أبو محمد علي بن أحمد (ت : 456 هـ) , **الإحكام في أصول الأحكام** , (تحقيق احمد محمد شاكر) , دار الآفاق الجديدة – بيروت - .

- الحلي , الحسين بن يوسف بن المطهر (ت 726 هـ) , **منهاج الكرامة** , (مطبوع مع منهاج السنة لابن تيمية) , مطبعة المدني , القاهرة .

- الحنفي , محمد بن علاء الدين بن أبي العز (ت 792 هـ) , **شرح العقيدة الطحاوية** , (تحقيق شعيب الأرناؤوط) .

- الخطيب البغدادي , أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ) , **تاريخ بغداد** , (دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا) , دار الكتب العلمية , بيروت , ط 1 , 1417 هـ .

- الخطيب البغدادي , أحمد بن علي (ت 463 هـ) , **الفقيه والمتفقه** , (تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي) , دار ابن الجوزي , السعودية , ط 2 , 1421 هـ .

- الخلال , أحمد بن محمد بن هارون (ت 311 هـ) , **السنة** , (تحقيق عطية الزهراني) , دار الراية , الرياض , ط 1 , 1410هـ .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت : 808 هـ) , **المقدمة** ، دار الفكر ، بيروت .

- الدارمي , عبد الله بن عبد الرحمن (ت 255 هـ) , **مسند الدارمي = سنن الدارمي** , (ت حسين سليم أسد) , دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية , ط 1، 1412 هـ .

- الدارمي , عثمان بن سعيد (ت 280هـ) , **نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد** , (تحقيق رشيد بن حسن الألمعي) , مكتبة الرشد للنشر والتوزيع , ط 1 , 1418هـ .

- الدارمي , عثمان بن سعيد (ت 280 هـ) , **الرد على الجهمية** , (تحقيق بدر البدر) , دار ابن الأثير , الكويت , ط 2 , 1416 هـ .

- الدينوري , أحمد بن داود (ت 282 هـ) , **الأخبار الطوال** , (تحقيق عبد المنعم عامر) , دار إحياء الكتب العربي – القاهرة - , ط 1 , 1960 م .

- الذهبي , محمد بن أحمد (ت 748 هـ) (د . ت) , **تاريخ الإسلام** , المكتبة التوفيقية .

- الذهبي , محمد بن أحمد (ت 748 هـ) , **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** , (تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود) ، دار الكتب العلمية ، ط 1 , 1995 م .

- الذهبي , محمد بن أحمد (ت 748 هـ) , **سير أعلام النبلاء** , دار الحديث , القاهرة , 1427 هـ

- الذهبي , أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت : 748 هـ) , **المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال** , (تحقيق محب الدين الخطيب) , بدون طبعة , بدون دار نشر .

- الراغب الأصفهاني , الحسين بن محمد (ت 502 هـ) , **المفردات في غريب القرآن** ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، 2003 م .

- الرازي , محمد بن أبي بكر(ت بعد 666 هـ) , **مختار الصحاح** , (تحقيق محمود خاطر) , مكتبة لبنان , 1415 هـ 1995 م .

- الرازي , محمد بن عمر بن الحسن (ت 606 هـ) , **مفاتيح الغيب** , دار إحياء التراث العربي – بيروت - , ط 3 , 1420 هـ .

- الرازي , محمد بن عمر (ت 606 هـ) , **أساس التقديس في علم الكلام** , مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت , ط 1 , 1995 م .

- الرازي , محمد بن عمر (ت 606هـ) ,**اس في التق ديس** , طبعة مصطفى البابي الحلبي , مصر 1935م

- رضا , محمد رشيد (ت 1354 هـ) , **رسائل السنة والشيعة** , دار المنار، القاهرة , ط 2 , 1366 هـ .

- الزمخشري , أبو القاسم محمود بن عمرو (ت 538 هـ) , **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** , دار الكتاب العربي – بيروت - ط 3 , 1407 هـ .

- السبكي , عبد الوهاب بن علي (ت 771 هـ) , **طبقات الشافعية الكبرى** ، طبعة مصطفى الحلبي , 1382 هـ

- السبكي , عبد الوهاب بن علي (ت 771 هـ) , **قاعدة في الجرح والتعديل** , (تحقيق عبد الفتاح أبو غدة) , دار البشائر , بيروت , ط 5 , 1410 هـ .

- السجستاني , سليمان بن الأشعث (ت 275 هـ) , **سنن أبي داود** , (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) , المكتبة العصرية ، بيروت .

- السفاريني , محمد بن أحمد (ت 1128 هـ) : **لوامع الأنظار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيئة في عقد الفرقة المرضية** , مؤسسة الخافقين ومكتباتها – دمشق - , ط 2 , 1402 هـ .

- السيوطي , عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ) : **معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم** , (ت محمد إبراهيم عبادة) , مكتبة الآداب , القاهرة , ط 1 , 1424 هـ .

- الشوكاني , محمد بن علي (ت 1250 هـ) : **أدب الطلب ومنتهى الأدب** , (ت عبد الله يحيى السريحي) , دار ابن حزم , بيروت , ط 1 , 1419هـ .

- الشيباني , أحمد بن حنبل : **مسند أحمد بن حنبل** , (تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون) , مؤسسة الرسالة , ط 1 ، 1421 هـ .

- الشيرازي ، محمد طاهر (ت 1098 هـ) , **الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين** ، مطبعة الأمير , إيران , ط1 1418هـ .

- الشهرستاني , محمد بن عبد الكريم (548 هـ) (د . ت) , **الملل والنحل** , مؤسسة الحلبي .

- الشيباني , عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت 290 هـ) , **السنة** , (ت محمد القحطاني) , دار ابن القيم , الدمام , ط 1 , 1406 هـ .

- الصنعاني , محمد بن إسماعيل (ت 1182 هـ) , **سبل السلام شرح بلوغ المرام** , دار الحديث .

- الصنعاني , محمد بن إسماعيل (ت 1182 هـ) , **افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة** , (تحقيق سعد بن عبد الله السعدان) , ط 1 , 1415 هـ .

- الطبري , محمد بن جرير (310 هـ) , **جامع البيان في تأويل القرآن** , (تحقيق أحمد شاكر) , مؤسسة الرسالة , 2000 م .

- الطبري , محمد بن جرير (ت 310 هـ) , **تاريخ الأمم والملوك** , دار الكتب العلمية , بيروت , ط 1 .

- ظهير , إحسان إلهي (ت 1407 هـ) ، **الشيعة والسنة** ، دار الأنصار، القاهرة ، 1979م

- ظهير , إحسان إلهي (ت 1407 هـ) , **الشيعة والتشيع : فرق وتاريخ** , إدارة ترجمان السنة، لاهور – باكستان , ط 10 , 1415 هـ .

- ابن عاشور , محمد الطاهر بن محمد (ت 1393 هـ) : **التحرير والتنوير** , الدار التونسية للنشر , 1984 م .

- ابن عبد البر , يوسف بن عبد الله (ت 463 هـ) , **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** ، (تحقيق مصطفى البكري) ، وزارة الأوقاف ، المغرب , 1387 هـ .

- ابن عبد البر , يوسف بن عبد الله (ت 463 هـ) , **جامع بيان العلم وفضله** , (تحقيق : أبو الأشبال الزهيري) , دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية , ط 1 , 1414 هـ .

- ابن عبد ربه , شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 328 هـ) , **العقد الفريد** , دار الكتب العلمية , بيروت , ط1 , 1404 هـ .

- ابن العربي , محمد بن عبد الله (ت 543 هـ) , **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم** , (علق عليه : محب الدين الخطيب) , وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد , السعودية , ط 1 , 1419 هـ .

- ابن عساكر , علي بن الحسن (ت 571 هـ) , **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري** , دار الكتاب العربي , بيروت , ط 3 , 1404 هـ .

- ابن عساكر , محمد بن مكرم (ت 711 هـ) , **مختصر تاريخ دمشق** , (تحقيق روحية النحاس , رياض عبد الحميد مراد ، محمد مطيع) , دار الفكر ، دمشق , ط 1 , 1402 هـ

- العسكري , أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت : نحو 395هـ) , **الفروق اللغوية** , دار العلم والثقافة , القاهرة .

- الغزالي , محمد بن محمد (ت 505 هـ) , **إحياء علوم الدين** , دار المعرفة , بيروت .

- الغزالي, محمد بن محمد (ت 505 هـ) , **المستصفى من علم الأصول** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .

- الغزالي , محمد بن محمد (ت 505 هـ) , **المستصفى من علم الأصول** , دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1996 م .

- ابن فارس , أبو الحسين أحمد بن فارس (ت 395 هـ) , **مقاييس اللغة** , (راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي) , دار الحديث , القاهرة , 1429هـ 2008مـ .

- الفراهيدي , الخليل بن احمد (ت 170 هـ) , **العين** , (تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي) , دار ومكتبة الهلال .

- ابن فورك , محمد بن الحسن (ت 406 هـ) , **مشكل الحديث وبيانه** ، دار الكتب العلمية - بيروت - 1980م .

- ابن قدامة , موفق الدين عبد الله بن أحمد (ت 620 هـ) , **حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة** , (تحقيق عبد الله يوسف الجديع) , مكتبة الرشد , الرياض , ط 1 , 1409 هـ.

- القرطبي , أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت : 671 هـ) , **الجامع لأحكام القرآن** , (تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش) , دار الكتب المصرية – القاهرة - , ط 2 , 1384 هـ .

- القزويني , محمد بن يزيد (ت 273 هـ) , **سنن ابن ماجة** , (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي) , دار إحياء الكتب العربية .

- القسطلاني , أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت 923 هـ) , **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري** , المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر , ط 7 , 1323 هـ .

- ابن قيم الجوزية , محمد بن أي بكر (ت 751 هـ) , **أعلام الموقعين عن رب العالمين** , (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) , المكتبة العصرية , بيروت , 1407 هـ .

- ابن قيم الجوزية , محمد بن أبي بكر (ت 751 هـ) , **طريق الهجرتين وباب السعادتين** , الدار السلفية , مصر , ط 2 , 1394 هـ .

- ابن قيم الجوزية , محمد بن أبي بكر (ت 751 هـ) , **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** , (تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي) , دار الكتاب العربي , بيروت , ط 3 , 1416 هـ .

- ابن كثير , اسماعيل بن عمر (ت 774 هـ) , **البداية والنهاية** , (تحقيق علي شيري) , دار إحياء التراث العربي , ط 1 , 1408 هـ .

- الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت 329 هـ) , **الكافي** , دار الكتب الإسلامية ، طهران , ط 3 , 1388 هـ

– الكناني , محمد بن إبراهيم (ت 733 هـ) , **إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل** , (تحقيق وهبي غاوجي) , دار السلام للطباعة والنشر , مصر , ط 1 , 1410 هـ .

- الكيا الهراسي , علي بن محمد بن علي (ت : 504 هـ) , **أحكام القرآن** , (تحقيق موسى محمد علي و عزة عبد عطية) , دار الكتب العلمية ، بيروت , ط 2 , 1405 هـ .

- اللالكائي , هبة الله بن الحسن بن منصور (ت 418 هـ) , **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** , (تحقيق سعد حمدان) , دار طيبة , الرياض .

- المازندراني , محمد صالح (ت 1081 هـ) , **شرح أصول الكافي** , (ضبط وتصحيح : علي عاشور) , ط 1 , 1421 هـ .

- المامقاني , عبد الله بن محمد (ت 1351 هـ) , **تنقيح المقال** , النجف , 1952 .

- المجلسي ، محمد باقر (ت 1111 هـ) , **بحار الأنوار** ، مؤسسة الوفاء , بيروت ، ط2 ، 1983م

- المقبلي , صالح (ت 1108 هـ) , **العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ** , دار البيان , دمشق , 1401 هـ .

- المقريزي , أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ) , **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** , دار الكتب العلمية ، بيروت , ط 1 , 1418 هـ .

- المناوي , محمد عبد الرؤوف (ت 1031 هـ) , **فيض القدير شرح الجامع الصغير** , ط1 , التجارية الكبرى - مصر - 1356هـ .

- ابن منظور , محمد بن مكرم (ت 711 هـ) , **لسان العرب** , دار صادر , بيروت , ط 1

- ابن الموصلي , محمد بن محمد , **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** , (تحقيق سيد ابراهيم) , دار الحديث ، القاهرة , ط 1 , 1422هـ .

- النسائي , محمد بن شعيب (ت 303 هـ) , **السنن الكبرى** , (حققه وخرج أحاديثه : حسن عبد المنعم شلبي) , مؤسسة الرسالة , بيروت , ط 1 ، 1421 هـ .

- النووي , يحيى بن شرف (ت 676 هـ) , **المجموع في شرح المهذب** , دار الفكر .

- النووي , أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت : 676 هـ) , **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** , دار إحياء التراث العربي – بيروت - , ط 2 , 1392 هـ .

- النيسابوري , مسلم بن الحجاج (ت 261 هـ) , **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم = صحيح مسلم** , (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي) , دار إحياء التراث العربي , بيروت .

- الهمداني , القاضي عبد الجبار بن أحمد (ت 415 هـ) , **شرح الأصول الخمسة** , (تحقيق عبد الكريم عثمان) , مكتبة وهبة , مصر , ط2 , 1408 هـ .

- اليعقوبي : أحمد بن إسحق (ت 284 هـ) , **تاريخ اليعقوبي** ، دار صادر , بيروت .

مراجع حديثة :

- أبو زهرة , محمد : **تاريخ المذاهب الإسلامية** , القاهرة , دار الفكر العربي .

– مختار, أحمد مع فريق عمل , 1429 هـ : **معجم اللغة العربية المعاصرة** , ط 1 عالم الكتب

- امحزون , محمد , 1428 هـ : **تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة** , ط 2 , القاهرة , دار السلام .

- قاسم , حمزة محمد , 1410 هـ : **منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري** , دمشق , مكتبة دار البيان .

- الخطيب , محمد أحمد , 1426 هـ : **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها** , ط 2 , عمان , مكتبة الأقصى .

- الخطيب , محمد أحمد , 1994 م : **الشعوبية والزندقة وأثرهما في ظهور العقائد والفرق المنحرفة** , ط 1 , عمان , مكتبة الأقصى .

- أحمد , رياض مصطفى و عبد الحميد جمال الفراني : **دور الفقهاء والعلماء في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين في بلاد الشام 491 -690هـ** , الجامعة الإسلامية , غزة .

- الزهراني , محمد بن مطر , 1417 هـ : **تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري** ، ط 1 , الرياض , دار الهجرة للنشر والتوزيع .

- أبو زيد , بكر : **تصنيف الناس بين الظن واليقين** , دار العاصمة .

- الصلابي , علي محمد , 1429 هـ : **الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار** , ط 2 , بيروت , دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع .

- عبد الحميد , عرفان : **دراسات في الفرق والعقائد** , دار الرسالة .

- صوفي , عبد القادر بن محمد عطا , 1422 هـ : **المفيد في مهمات التوحيد** , ط 1 , دار الأعلام

- العقل , ناصر , **الافتراق : مفهومه ،أسبابه ، سبل الوقاية منه** , تفريغ لمحاضرة ألقاها الدكتور في الرياض في شهر ربيع الثاني عام 1412هـ .

- العودة , سلمان 1990 م : **صفة الغرباء** , ط 1 , دار ابن الجوزي .

- جريشه , على ومحمود محمد سالم : **حاضر العالم الإسلامي** , مطابع الدجوي , القاهرة .

- القفاري , ناصر بن عبد الله , 1414 هـ : **أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية** - عرض ونقد - , ط 1 .

- مجموعة مؤلفين , **الموسوعة الفقهية الكويتية** , وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية (الكويت) , ط 2 , الكويت , دار السلاسل .

- المحمود , عبد الرحمن بن صالح , 1415 هـ : **موقف ابن تيمية من الأشاعرة** , ط 1 , الرياض , مكتبة الرشد .

- المصري , جميل عبد الله : **أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول** , المدينة المنورة , مكتبة الدار.

- المعايطة , عطا الله , 1431 هـ : **الفرق الإسلامية وموقف أهل السنة والجماعة منها** , ط 1 , دار الفاروق .

- الميداني , عبد الرحمن حسن حبنكة , 1420 هـ : **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير - الاستشراق - الاستعمار ، دراسة وتحليل وتوجيه** , ط 8 , دمشق , دار القلم .

- آل نعمان , شادي بن محمد بن سالم , 2010 م : **موسوعة الإمام الألباني ,** ط 1 , صنعاء , مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية .

- الندوة العالمية للشباب الإسلامي , 1420 هـ : **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة** , إشراف وتخطيط ومراجعة : د. مانع بن حماد الجهني , ط 4 .

المجلات :

137 – إدريس , جعفر شيخ , مقال بعنوان : مفهوم العقل , **مجلة البيان** , العدد 158 .

138 - آزاد , محي الدين : كتاب الخلافة الإسلامية , **مجلة المنار** , المجلد 23 .

مواقع شبكة المعلومات – الانترنت - :

139 - زعفان , الهيثم : مخاطر الفضائيات الشيعية على عقيدة أهل السنة , موقع البرهان :
http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no=3383#.UdeDwaxTsW8

140 - عمرو , أحمد : الفضائيات الشيعية.. حرب إيرانية جديدة , موقع البرهان :
http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no=3649#.UdeGGaxTsW8